الشيخ محمد الغزالي رحمه الله

الموقع الفكري والمعارك الفكرية

د. محمد عمارة

دار السلام
للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة

الشيخ محمد الغزالي

رحمه الله

الموقع الفكري
والمعارك الفكرية

تأليف
د. محمد عمارة

دار السلام
للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة

الطبعة الأولى

١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م

بطاقة فهرسة

فهرسة أثناء النشر إعداد الهيئة المصرية العامة لدار الكتب والوثائق القومية - إدارة الشؤون الفنية

عمارة، محمد.

الشيخ محمد الغزالي الموقع الفكري والمعارك الفكرية / تأليف: محمد عمارة. - ط ١ - [القاهرة]: دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة، [٢٠٠٨م].

١٥٢ ص؛ ٢٤سم.

تدمك ٦ ٦٧٢ ٣٤٢ ٩٧٧

١ - الفلسفة الإسلامية.

٢ - الغزالي، محمد بن محمد بن محمد، ١٠٥٨ - ١١١١

أ - العنوان

١٨٩,١

دار السلام

للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة

ش.م.م

تأسست الدار عام ١٩٧٣م وحصلت على جائزة أفضل ناشر للتراث لثلاثة أعوام متتالية ١٩٩٩م، ٢٠٠٠م، ٢٠٠١م هي عمر الجائزة تتويجًا لعقد ثالث مضى في صناعة النشر

جمهورية مصر العربية - القاهرة - الإسكندرية

الإدارة: القاهرة: ١٩ شارع عمر لطفي موازٍ لشارع عباس العقاد خلف مكتب مصر للطيران عند الحديقة الدولية وأمام مسجد الشهيد عمرو الشربيني - مدينة نصر

هاتف: ٢٢٧٠٤٢٨٠ - ٢٢٧٤١٥٧٨ (٠٢٠٢ +) فاكس: ٢٢٧٤١٧٥٠ (٠٢٠٢ +)

المكتبة: فرع الأزهر: ١٢٠ شارع الأزهر الرئيسي - هاتف: ٢٥٩٣٢٨٢٠ (٠٢٠٢ +)

المكتبة: فرع مدينة نصر: ١ شارع الحسن بن علي متفرع من شارع علي أمين امتداد شارع مصطفى النحاس - مدينة نصر - هاتف: ٢٤٠٥٤٦٤٢ (٠٢٠٢ +)

المكتبة: فرع الإسكندرية: ١٢٠ شارع الإسكندر الأكبر - الشاطبي بجوار جمعية الشبان المسلمين

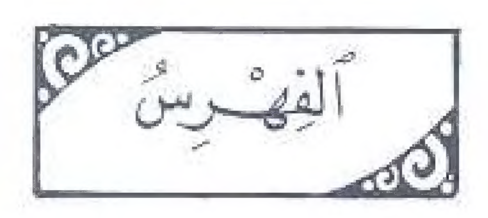
هاتف: ٥٩٣٢٢٠٥ فاكس: ٥٩٣٢٢٠٤ (٠٢٠٣ +)

بريديًا: القاهرة: ص.ب ١٦١ الغورية - الرمز البريدي ١١٦٣٩

البريد الإلكتروني: info@dar-alsalam.com

موقعنا على الإنترنت: www.dar-alsalam.com

بسم الله الرحمن الرحيم



***

مقدمة الطبعة الجديدة

١

قبل أكثر من عشر سنوات، رحل عن عالمنا الفاني، إلى دار البقاء شيخنا الجليل الشيخ محمد الغزالي (١٣٣٥ - ١٤١٦هـ / ١٩١٧ - ١٩٩٦م).. رحل في اليوم التاسع من شهر مارس، وهو نفس اليوم الذي رحل فيه رائد اليقظة الإسلامية الحديثة جمال الدين الأفغاني .. الذي تتلمذ عليه الإمام محمد عبده.. الذي تتلمذ عليه الإمام رشيد رضا.. الذي تتلمذ عليه الإمام البنا.. الذي تتلمذ عليه الشيخ الغزالي..

وعندما يتلفت المرء حوله الآن، ويرى الحرب العالمية المعلنة والمستعرة ضد الإسلام وأمته وحضارته، يشعر بالفراغ الذي تركه الشيخ الغزالي في الميدان.. ويتذكر حديث رسول الله ﷺ: « إن الله لا يقبض العلم انتزاعًا ينتزعه من العباد، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء حتى إذا لم يُبق عالمًا اتخذ الناس رؤوسًا جهالًا فسئلوا فأفتوا بغير علم فضلوا وأضلوا »[1] .

لم يكن الشيخ الغزالي مجرد عقل مجتهد ومجدد.. ولا مجرد داعية حامل لهموم الأمة، ومرابط بفروسية على ثغور الإسلام

---

(١) رواه البخاري (١/ ٥٠) برقم (١٠٠)، ومسلم (٤/ ٢٠٥٩) برقم (٢٦٧٣).

على امتداد خمسين عامًا ترك لنا فيها قرابة الستين كتابًا وذلك غير المقالات والخطب والمحاضرات والحوارات، التي ستبقى ديوانًا للجهاد الفكري في سبيل النهضة والاستنارة والتقدم والتجديد، و « جامعة للفكر الإسلامي » تتربى فيها الأجيال. لم يكن الشيخ الغزالي كل هذا فقط، وإنما كان – مع ذلك – قلبًا نورانيًا عاش في سناه عارفوه، الذين أسعدهم الله بالاقتراب منه، والأنس بهذا النور الذي كان يفيض من هذا القلب الكبير..

لقد كان – رحمه الله – يعرّف الإسلام فيقول عنه: « إنه قلب تقيٌّ.. وعقل ذكيٌّ »!.. ولذلك، كان واحدًا من أعلام العلماء الذين عملوا على إنقاذ الثقافة الإسلامية من ذلك الفصام المنكر بين العقل والقلب.. ذلك الفصام الذي حوّل حتى العبادات إلى أشكال جفّت فيها الروحانية، وحوّل القلوب إلى بدع وخرافات، عندما انتهى الصراع بين الصوفية والفقهاء إلى: فقهاء لا قلوب لهم!.. وصوفية لا عقول لهم!.. فجاءت مدرسة الإحياء والتجديد – التي تربى فيها الشيخ الغزالي، وأصبح من أعلام علمائها – لتعيد الوفاق والاتفاق والتزامل والتكامل بين « العقول المؤمنة » و« القلوب الواعية ».. فانتصرت – في هذه المدرسة – العقلانية المؤمنة، والمجاهدة الروحية التي تزكي النفوس، وتفجر شلالات النور الإلهي من القلوب!..

لذلك، فإن كل الذين قرأوا للشيخ الغزالي، أو سمعوا له، أو سمعوا عنه قد حزنوا لموته.. أما الذين سعدوا وأنسوا بأنوار

قلبه إلى جانب ذكاء عقله – وأنا واحد منهم – فإن مصابهم فيه لا تعوضه الكتب ولا الخطب، بل ولا تستطيع التعبير عنه الكلمات!..

في السنوات الأخيرة من حياته كان الأطباء قد نصحوه بالمشي كل يوم مدة من الزمن.. وعندما كنت أسأله عن مدى تنفيذيه لنصيحة الأطباء، كان يقول لي: كيف يتأتى ذلك.. وكلما خرجت من المنزل أحاطني الناس يسألون ويستفتون؟!... كانوا يسألونه في الفقه والفكر.. أما أنا وأسرتي فإن لهفتنا الدائمة – عند لقائه أو الحديث معه في الهاتف – أن نسأله « الدعاء »!.. وكنا نعيش السعادة الغامرة عندما يطمئننا – دائمًا – أنه يدعو لنا في الأسحار!..

ويسبب من ظروفه الصحية – في سنواته الأخيرة – اجتهد أبناؤه – بارك الله فيهم – في إحاطة حياته بنظام يحقق له قدرًا من الراحة، ومن تنظيم الوقت، والاقتصاد فيما هو أقل أهمية من النشاط والأسفار.. لكن علاقة « الأنس الروحي والفكري » التي جمعت بيننا جعلته يستجيب – وهو سعيد – لكل ما أطلبه منه.. حتى لقد كان الكثيرون يستعينون بي كي يقبل الدعوات، ويلقي المحاضرات، ويحضر الندوات.. وكان أبناؤه يطمئنون لأسفاره – خارج مصر – عندما يعرفون أني سأكون في صحبته.. وكانت أسعد أوقاتي تلك التي ألازمه فيها، وأعاونه في الغدوات والروحات..

ولقد كان « الغزالي – العالم » منطويًا على حكمة تنتظر من يكشف عنها، ويفجرها ويستدعيها.. ولقد كنت أشعر بحماسه للاشتراك معي في الحوارات التلفازية، لأن الأسئلة غير التقليدية والقضايا الجديدة، التي يفتح الله عليَّ بها كانت تستدعي من حكمته وثمرات عبقريته الجديد والغزير وغير المألوف في حواراته مع آخرين..

وفي سنوات حياته الأخيرة، أحسست أن الرجل يحمّلني أمانة، كنت أشفق على نفسي من ثقلها، وأدعو الله ﷻ أن يعينني على الوفاء بتبعاتها.. وفي آخر لقاء لي معه بمنزله – وكنا نسجل معًا حلقتين لبرنامج « روضة لإسلام » – عندما استأذنته في الانصراف، استبقاني حتى يحضر لي نسخة من كتابه الأخير (نحو تفسير موضوعي لسور القرآن الكريم) .. وكتب عليه الإهداء، الذي حملني فيه الأمانة: « إلى أخي الحبيب الدكتور محمد عمارة داعية الإسلام، وحارس تعاليمه، مع الدعاء. محمد الغزالي »!..

ولقد ظل التواصل بيننا – عبر الهاتف – منتظمًا، يتكرر عدة مرات كل أسبوع.. حتى علمت أنه قد قبل الدعوة لزيارة « الرياض » لحضور فعاليات المهرجان الوطني للثقافة – بالمملكة العربية السعودية – فاندهشت وأشفقت.. لأننا كنا نخشى على صحته – بسبب فرط حساسيته – من أن يتعرض لاستفزاز أحد من الذين أساءوا به الظن – غفر الله لهم – وهاجموه، وأصدروا

ضده أربعة عشر كتابًا مليئة بالافتراءات الجاهلة، بعد صدور كتابه (السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث) (١٩٨٩م).. وكنا - معشر المقربين منه - قد اتفقنا معه على تجنب مصادر ومواطن هذا الاستفزاز، بل وعدم قراءة ما يكتبه عنه هؤلاء!..

ولم أكن أدري - ولا أحد غير الباري ﷻ - أن لقاءه لربه قد اقترب، وأنه مسافر - في لهفة غير مسبوقة - إلى الأرض المقدسة التي كتب الله أن يلقاه فيها وعليها.. وصدق الله العظيم: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ ﴾ [لقمان: ٣٤]..

ولقد سافرت أنا - حول ذات التاريخ - إلى الكويت؛ لمشاركة في ندوة علمية، وهناك سمعت وقرأت نبأ انتقال شيخنا إلى بارئه، ودفنه في مدينة حبيبه وحبيبنا رسول الله ﷺ « بالبقيع » على مقربة من مثوى إمام الهجرة مالك بن أنس (٩٣ - ١٧٩هـ / ٧١٢ - ٧٩٥م) - رضي الله عن الجميع -..

لقد كان - قبل وفاته بلحظات يجلس - في قاعة الملك فيصل بالرياض، يتابع الأبحاث والحوارات في ندوة المهرجان الوطني للثقافة.. فلما سمع من على « المنصة » كلامًا - في الإسلام - لا يليق ولا يرضاه.. طلب التعليق.. فاستأذنه مدير الجلسة في الانتظار إلى موعد الحوار.. فأخرج من جيبه قلمًا وورقة، ليدون عناوين دفاعه عن الإسلام.. فوافته المنية في هذا المشهد.. مشهد

الرباط والدفاع عن حقائق الإسلام!.. ويا له من ختام شاهد على مسيرة هذا الإمام العظيم.. ومبشر بحسن الجزاء والمثوبة — إن شاء الله — عند ربه الكريم..

ولقد عدت من الكويت إلى القاهرة بعد الفراغ من العزاء.. فشاركت في حفل التأبين له بجمعية الشبان المسلمين، ثم ذهبت إلى منزل الشيخ لتأدية واجب العزاء لأسرته.. وهناك — بالصدفة — لقيت سيدة قصت علينا قصة الرؤيا التي رأتها، والتي أخبرت بها شيخنا قبل سفره إلى الرياض بأيام.. كانت لهذه السيدة ابنة تمر بحالة صحية حرجة.. وكانت شديدة القلق عليها.. فرأت فيما يرى النائم أنها في مدينة رسول الله ﷺ.. وسمعت أصواتًا من مكان قريب، فذهبت تستطلع الخبر.. فرأت رسول الله ﷺ يمسك باليد اليمنى للشيخ الغزالي، وسيدنا بلال يمسك بيسراه!! ثم استيقظت السيدة من نومها.. فقصت رؤياها على زوجها.. الذي سأل عن رقم هاتف الشيخ.. فقصت السيدة عليه ما رأت في المنام.. فطمأنها على ابنتها، وقال معلقًا على رؤياها: هذه صحبة أحبها وأريدها.. وكان سفره — في لهفة — إلى الرياض.. ليلقى ربه.. وليجاور — في مثواه — رسول الله ﷺ وصحابته الكرام..

لقد كان الشيخ الغزالي رقيق العاطفة.. لكنه كان أسدًا هصورًا عندما يغضب للإسلام ولحرمات أمة الإسلام.. وكان حادًا في تقريعه للغافلين عن مخاطر الحرب « الصليبية —

الصهيونية » القائمة ضد الإسلام.. وكان يبكي عشقًا لحبيبه وحبيبنا رسول الله ﷺ .. وكان يأسى على الماديين الذين لا قلوب لهم.. ويشفق على كثير من الشيوخ الذين لا عقول لهم، ولقد عاش مرابطًا على ثغور الإسلام.. الإسلام الذي وصفه وصفًا دقيقًا وجامعًا عندما قال عنه: « إنه قلب تقي.. وعقل ذكي ».. رحمه الله رحمة واسعة.. وعوض أمتنا عنه خيرًا.. إنه - سبحانه - أكرم مسؤول، وأفضل مجيب.

٢

كان الشيخ الغزالي (١٣٣٥ - ١٤١٦هـ / ١٩١٧ - ١٩٩٦م) - رحمه الله - نموذجًا فريدًا من العلماء المجددين.. كان حاملًا لهموم الأمة.. واعيًا بأبعاد الحرب المعلنة - تاريخيًا - ضد الإسلام وأمته وحضارته.. مدركًا لخطر الأمراض الداخلية التي تفترس الأمة، والتي يحرسها الغرب الاستعماري، لتظل أمتنا في حالة « الرجل المريض » الذي يفترس الصليبيون والصهاينة تركته ويقطعون أوصاله.. ومبصرًا لمخاطر أمراض القلوب، التي تفوق أمراض الواقع المادي!..

وبقدر ما كان هاشًا باشًا مع الجماهير المطحونة، حتى ليقول: « لو كنت ملكًا لأبيت إلا الانتظام في سلك الأخوة المطلقة مع الجماهير الدنيا، أخدمهم ويخدمونني على السواء »!!.. كان واعيًا بجريمة « النخبة » التي أفسد الاستعمار عقولها، وحوّل عن الإسلام قلوبها.. وبخطر المتدينين الذين غرقوا وأغرقوا الناس

معهم في الشكليات، حتى لقد فرّغوا الدين من أعز ما فيه: التقوى، وروح الجهاد!..

وعلى المستوى الفكري، كان الشيخ الغزالي أسدًا هصورًا مرابطًا على ثغور الفكر الإسلامي، حتى لقد مثلت حياته مشروعًا فكريًا.. ومعركة فكرية امتدت لأكثر من خمسين عامًا، لم يترك فيها قضية من قضايا العصر إلا وخاض ميدانها ببسالة ووعي وإخلاص..

* ففي مواجهة الاستبداد المالي والمظالم الاجتماعية، التي شلت قدرات الأمة وعطلت ملكاتها المادية والمعنوية، خاض أولى معاركه، وأرسى في صرح مشروعه الفكري عددًا من اللبنات التي تمثلت في كتبه: (الإسلام والأوضاع الاقتصادية) و (الإسلام والمناهج الاشتراكية) و (الإسلام المفترى عليه بين الشيوعيين والرأسماليين) و (الإسلام في وجه الزحف الأحمر).. وفي هذا الميدان قدم فكرًا نفيسًا، وثوريًا.. قال فيه: « لقد رأيت – بعد تجارب عدة – أنني لا أستطيع أن أجد بين الطبقات البائسة الجو الملائم لغرس العقائد العظيمة، والأعمال الصالحة، والأخلاق الفاضلة!!. إنه من العسير جدًا أن تملأ قلب إنسان بالهدى إذا كانت معدته خالية، أو أن تكسوه بلباس التقوى إذا كان جسده عاريًا!.. إنه يجب أن يُؤَمَّن على ضروراته التي تقيم أوده كإنسان، ثم ينتظر بعدئذ أن تستمسك في نفسه مبادئ الإيمان.. فلا بد من التمهيد الاقتصادي الواسع، والإصلاح العمراني

الشامل، إذا كنا مخلصين حقًّا في محاربة الرذائل والمعاصي والجرائم باسم الدين، أو راغبين حقًّا في هداية الناس لرب العالمين..

إن بعض ذوي الآفاق المغلقة يتوهمون أن إدخال العوامل الاقتصادية في الرذائل والفضائل جنوح إلى التفكير الشيوعي القائم على النظرة المادية المحضة للحياة، واستهانة بالقوى الروحية السامية.. وهذا التوهم خاطئ، فلسنا نغض من قيمة الجانب الروحي.. بيد أن ذلك لا يعني إغفال المشاهد المحسوس، من تولد الرذائل الخطيرة في المجتمعات المصابة بالعوز والاحتياج، بل إن الاضطراب الاقتصادي في أحوال كثيرة جدًّا قد يكون السبب الأوحد في نشوء الرذيلة وشيوعها، والحديث النبوي الذي يلمح فيه نبي الإسلام إلى أن المعاصي توقع فيها الضوائق المادية - حديث: «إن المدين قد تلجئه قلة الوفاء إلى الكذب» - يضع أيدينا على طرف الحقيقة التي بدأ الناس يفهمونها الآن كاملة!..

إن بقاء كثير من الناس صرعى الفقر والمسكنة، هو هدف أكثر الحكومات المتتابعة، في العصور السابقة واللاحقة، إذ إن تجويع الجماهير بعض الدعائم التي تقوم عليها سياسة الظلم والظلام، ومن هنا انتشر الفقر في الشرق، وسُخر الدين ورجاله لحمل الناس على قبوله واستساغته، وفُسرت نصوص الدين المتصلة بهذا المعنى تفسيرًا سقيمًا، نسي الناس معه حقوقهم

وحياتهم، وجهلوا دنياهم وآخراهم، وحسبوا الفقر في الدنيا سبيلًا إلى الغنى في الآخرة!!

إن هدف الديانات والرسالات هو قيام التوازن بين الناس، بإقامة العدل الاجتماعي والسياسي فيهم.. وقيام الناس بالقسط - العدل - هو محور الارتكاز الذي لا يتغير أبدًا، وقد قال بعض علماء الأصول: إن مصالح الناس المرسلة، لو وقف دون تحقيقها نص أُوِّل النص، وأُمضيت المصالح التي لا بد منها.. وللحكومة - من وجهة النظر الدينية - أن تقترح ما تشاء من الحلول، وأن تبتدع ما تشاء من الأنظمة لضمان هذه المصلحة، وهي مطمئنة إلى أن الدين معها لا عليها، ما دامت تتحرى الحق، وتبتغي العدل، وتنضبط بشرع الله فيما تصدره من اقتراحات وقوانين..

إن المال الذي يكفي لإذهاب الغيلة، واستئصال الحرمان، وإشاعة فضل الله على عباده، يجب إخراجه - مهما عظم - من ثروات الأغنياء، ولو تجاوز تجاوزًا بعيدًا مقادير الزكاة المفروضة، لأن حفظ الحياة حق إسلامي أصيل، ومقادير الزكاة ليست إلا الحد الأدنى لما يجب إنفاقه، وقد ورد عن النبي ﷺ: «إن في المال حقًّا غير الزكاة»[1]..

ومن الواجب:

١- تأميم المرافق العامة، وجعل الأمة هي المالكة الأولى لموارد الاستغلال، وإقصاء الشركات المحتكرة لخيرات الوطن،

(١) رواه الترمذي (٣/ ٤٨) برقم (٦٦٠).

أجنبية أو غير أجنبية، وعدم إعطاء أي امتياز فردي من هذا القبيل.

٢- تحديد الملكيات الزراعية الكبرى، وتكوين طبقة من صغار الملاك، تؤخذ نواتها من العمال الزراعيين.

٣- فرض ضرائب على رؤوس الأموال الكبرى، يُقصد بها تحديد الملكيات غير الزراعية.

٤- استرداد الأملاك التي أخذها الأجانب، وإعادتها إلى أبناء البلاد، وتحريم تملك الأرض المصرية على الأجانب تحريمًا مؤبدًا.

٥- ربط أجور العمال بأرباح المؤسسات الاقتصادية التي يعملون بها بحيث تكون لهم أسهم معينة مع أصحابها في الأرباح.

٦- فرض ضرائب تصاعدية على التركات، تنفق في وجوه الخير، على النحو الذي أشار به القرآن، إذ يقول: ﴿وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ أُولُوا۟ ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينُ فَٱرْزُقُوهُم مِّنْهُ وَقُولُوا۟ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾ [النساء: ٨]..

ولو لم يبق لكل فرد من أفراد الشعب إلا قوته الضروري، لما جاز أن تتراجع الدولة في تحقيق هذا البرنامج، الذي تعلن به الحرب على الظلم والجهالة والاستعمار».

هكذا تحدث الشيخ الغزالي.. في أول كتاب ألفه.. وأول معركة فكرية خاضها ضد الظلم الاجتماعي (١٩٤٧م).. أي

قبل ستين عامًا.. فسحب بساط الدين من تحت أقدام الظالمين المستغلين.. وبرهن على أن الإسلام هو الحل لمشكلاتنا الاجتماعية.. وليس المبرر للمظالم الاجتماعية، كما يريد الظلمة.. وفقهاء السلاطين!..

* وإذا كانت هذه المعركة - ضد المظالم الاجتماعية والاستغلال الاقتصادي والاستبداد المالي - كانت أولى المعارك الفكرية لشيخنا الغزالي.. فلقد كانت معركته ضد الجمود، والخرافية النصوصية، و« الظاهرية - البدوية » التي تغض من شأن ملكة العقل، فتفل عزم المسلمين في مواجهة التحديات المعاصرة، وتكرس التخلف الموروث.. كانت معركته ضد هذا الجناح من أجنحة التحدي الحضاري الذي يواجه الأمة الإسلامية.. هي آخر معاركه الفكرية الكبرى.. ففي كتابه (السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث).. ومن قبله في فصول من كتابه (دستور الوحدة الثقافية بين المسلمين).. قدم الرجل منهاجًا إسلاميًا عبقريًا في التعامل مع النصوص.. وفي فقه هذه النصوص.. فعنده: « إنه لا فقه بغير سُنة، ولا سنة بغير فقه.. وقوام الإسلام بركنيه كليهما من كتاب وسنة..

إن السنة النبوية تواجه هجومًا شديدًا في هذه الأيام، وهو هجوم خالٍ من العلم ومن الإنصاف.. وقد تألفت بعض جماعات شاذة تدعي الاكتفاء بالقرآن وحده، ولو تم لهذه الجماعات ما تريد، لأضاعت القرآن والسنة جميعًا، فإن القضاء على السنة ذريعة للقضاء على الدين كله!..

إن محاربة السنة لو قامت على أسس علمية لوجب ألا يدرس التاريخ في بلد ما!.. لماذا يقبل التاريخ - على أنه علم - وتهتم كل أمة به، مع أن طرق الإثبات فيه مساوية أو أقل من طرق الإثبات من الحديث النبوي؟!.. ولماذا تدرس سير العظماء وكلماتهم، وتعرض للتأسي والإعجاب، ويحرم من ذلك الحق رسل الله، وفي صدارتهم سيد أولئك الرسل مروءة وشرفًا، وبيانًا وأدبًا، وجهادًا وإخلاصًا؟!.

إن بعض البله يتصور الأنبياء أبواقًا لأمين الوحي، يرددون ما يلقيه إليهم، فإذا انصرف عنهم هبطوا إلى مستوى الدهماء، وخبا نورهم!.. أيُّ غفلة صغيرة في هذا التصور؟!..

إن الله - في كتابه - أحصى أسماء ثمانية عشر نبيًا من الهداة الأوائل، ثم قال للهادي الخاتم: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ قُل لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: ٩٠]، فإذا برز للإنسانية إنسان كامل، التقت في سيرته شمائل النبوة كلها، وتفجرت الحكمة على لسانه كلمات جوامع، واستطاع - وهو الفرد المستوحش - أن يحشد من القوة ما يقمع كبرياء الجبابرة، ويكسر قيود الشعوب، ويوطئ الأكناف للحق المطارد.. إذا يسر الله للإنسانية هذا الإنسان العابد المجاهد الناصح المربي، جاء غِرٌّ ليقول: لا نأخذ منه ولا نسمع منه، ثم يستطرد - مُخْفِيًا غشه -: حسبنا كتاب الله!!..

إن السنة ليست إلا الامتداد لسنا القرآن، والتفسير لمعناه، والتحقيق لأهدافه ووصاياه..»

هكذا تحدث الشيخ الغزالي عن أهل الجمود - جمود الغلاة -.. فبدأ بالذين يريدون قطع إحدى ساقي الإسلام.. سنة رسول الله ﷺ.. محذرًا من أن دعوة هؤلاء إذا نجحت - لا قدر الله - ستفضي إلى ضياع القرآن والسنة جميعًا، لأن القضاء على السنة ذريعة للقضاء على الدين كله!..

ثم تحول شيخنا الجليل - عليه رحمة الله - إلى الجناح الثاني من أهل الغلو في الجمود.. أولئك الذين غاب عنهم الفقه وهم يتعاملون مع سنة رسول الله عليه الصلاة والسلام..

٣

بعد أن تصدى شيخنا محمد الغزالي (١٣٣٥ - ١٤١٦هـ / ١٩١٧ - ١٩٩٦م) - عليه رحمة الله - للذين ينكرون سنة رسول الله ﷺ، مخفين غشهم بكلمة: حسبنا كتاب الله!.. عرج بالنقد المنهجي على مواقف نفر من المنتسبين إلى السنة النبوية المطهرة - انتسابًا غير واع - فصاغ من خلال نقده لهم منهجًا علميًا واعيًا في التعامل مع النصوص.. وفي هذا السياق قال ضمن ما قال: « على أننا نعتب على جماعات كثيرة تنتسب للسنة، وتظهر التمسك بها، فإن مسلكها قد يكون وراء انصراف بعض الناس عن السنة وشكهم في جدواها، نأخذ على هذه الجماعات أمرين:

أولها: أنها تخلط الصحيح بالسقيم، ولا تدري بدقة ما يقبل ويرد من المرويات..

ثانيها: قصورهم الفقهي، فليست لهم قدم راسخة في فقه الكتاب الكريم - مع أنه الأصل - كما أنهم يأخذون الأحاديث مقطوعة عن ملابساتها، ولا يضمون إليها ما ورد في موضوعها من مرويات أخرى قد تؤيدها وقد تردها..

لقد بُذلت في تحقيق السنة جهود لم يُبذل مثلُها في الوقوف على تراث بشر، كي يُعرف ما قال الرسول ﷺ حقًا.. وانتهت هذه الجهود بجملة حقائق محترمة:

١- إن في السنة ما هو متواتر لفظًا ومعنى، وهذا النوع من السنة يشبه القرآن الكريم فيما أتى به من أحكام..

٢- وجمهور الأمة يقبل سنن الآحاد، ويعدها دليلًا على الحكم الشرعي الذي تعبد الله بإقامته، ومن الناس من عد هذه السنن مفيدة لليقين الذي يفيده التواتر - ما دامت صحيحة - ولكن جمهور العلماء يقبل سنن الآحاد في الأحكام العملية والفروع الفقهية، ولا ينقلها إلى ميدان العقيدة، الذي يقوم الأمر فيه على القطع، ومعنى ذلك أن سنن الآحاد تفيد الظن العلمي وحسب.

٣- مع اتفاق الفقهاء على أن سنن الآحاد قرينة مقبولة في إفادة الحكم الشرعي، فإن عددًا من الأئمة يتجاوز هذه السنن إذا كانت هناك قرينة أقوى منها في إفادة حكم الله.

فالإمام مالك – مثلًا – يرى عمل أهل المدينة أدل على السنة النبوية من حديث الآحاد مهما كانت صحته.

والأحناف يرون أن حديث الآحاد لا ينهض على إثبات الفَرْضية وحده، ولا ينهض كذلك على إثبات الحرمة، ولكنه يثبت أحكامًا أقل رتبة، وغالى بعضهم فجعل القياس القطعي أرجح من سنن الآحاد..

إن الحكم الديني لا يؤخذ من حديث واحد مفصول عن غيره، وإنما يضم الحديث إلى الحديث، ثم تُقارن الأحاديث المجموعة بما دل عليه القرآن الكريم، فإن القرآن هو الإطار الذي تعمل الأحاديث في نطاقه لا تعدوه، ومن زعم أن السنة تقضي على الكتاب، أو تنسخ أحكامه فهو مغرور!.. إن حياة محمد – صلوات الله عليه – كانت تطبيقًا عمليًا لتوجيهات القرآن!.. كانت قرآنًا حيًا يغير الأرض ويصنع حضارة أخرى، ولولا هذه السنة العملية والقولية؛ لكان القرآن أشبه بالفلسفات النظرية الثابتة في عالم الخيال..

إننا نعتقد – مثل كثير من العلماء المحققين – أن الأحكام التي توجد في الأحاديث الصحيحة هي مأخوذة ومُستنبطة من القرآن الكريم، استنبطها النبي ﷺ من القرآن، بتأييد إلهي، وبيان رباني، ولذلك يجب علينا قبولها والعمل بها بشرط ثبوتها إلى النبي ﷺ، وهذا الفهم والاستنباط يسمى في اصطلاح القرآن تارة « تبيينًا » وتارة « إراءة ». قال تعالى: ﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ

لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [النحل: ٤٤].. وقال جل شأنه: ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ ﴾ [النساء: ١٠٥]..

إن دراسة السنة علم له رجاله الخبراء، ولا يقبل في هذا الميدان ما يرسله السفهاء من أحكام طائشة، تجعل التطويح بالسنة النبوية أمرًا جائزًا، أو تجعل تكذيب حديث ما هوى مطاعًا.

ولقد كان الفقهاء – على امتداد تاريخنا العلمي – هم القادة الموثقون للأمة، الذين أسلمت لهم زمامها عن رضا وطمأنينة، وقنع أهل الحديث بتقديم ما يتناقلون من آثار، كما تقدم مواد البناء للمهندس الذي يبني الدار، ويرفع الشرفات. والواقع أن كلًّا من الفريقين يحتاج إلى الآخر.. فلا فقه بغير سنة، ولا سنة بغير فقه، وقوام الإسلام بركنيه كليهما من كتاب وسنة.. وعظمة الإسلام تتم بهذا التعاون.. »

هكذا تحدث الشيخ الغزالي – عليه رحمة الله – عن المنهاج العلمي في التعامل مع السنة النبوية الشريفة حديثًا موزونًا بموازين الفقهاء العظام.. فكان هذا التوازن الجامع بين الأصل: القرآن الكريم.. وبين البيان، أي السنة النبوية، التي هي البيان النبوي للبلاغ القرآني..

* ومن المعارك الفكرية التي خاضها الشيخ الغزالي، والتي مثلت معالم بارزة في مشروعه الفكري، معركته في مواجهة

الاستبداد السياسي، الذي حرم الأمة من ثمرات الشورى الإسلامية، فأعجزها عن مواجهة تبعات رسالتها، ومجابهة تحديات أعدائها - وفي هذا الميدان قدم كتبًا عدة، منها: (الإسلام والاستبداد السياسي) و (حقوق الإنسان بين تعاليم الإسلام وإعلان الأمم المتحدة).. وغيرهما من الكتب والدراسات والمقالات التي عالجت قضايا هذا الميدان.

* كذلك، خاض الشيخ الغزالي المعارك العديدة في مواجهة تحديات الحضارة الغربية التي حاولت وتحاول طمس التميز الحضاري للإسلام، ونسخ هوية أمته، ومسخ الروح الإسلامية المتميزة في علوم حضارتنا ونظمها.. وفي هذا الميدان قدم - رحمه الله - العديد من الأعمال الفكرية، التي مثلت كتائب في معاركنا الفكرية ضد التغريب والاستلاب الحضاري.. فكتابه (من هنا نعلم) مواجهة مع محاولات « علمنة الإسلام »، ليكون نصرانيةً، تدع ما لقيصر لقيصر وما لله لله!.. وكتابه (حقيقة القومية العربية) مواجهة للمفاهيم الغربية في القومية، تلك التي استعارها فريق منا، فكانت عدوانًا على عالمية الإسلام، وانتقاصًا من وحدة الأمة.. وعنصرية ترتد بنا إلى عصبية الجاهلية الأولى!..

أما كتابه (دفاع عن العقيدة والشريعة ضد مطاعن المستشرقين)، فإنه نزال مع المستشرق المجري جولدتسيهر (١٨٥٠ - ١٩٢١م)، الذي أراد في كتابه (العقيدة والشريعة) تقديم الإسلام كاستعارات ملفقة من عقائد الآخرين وشرائعهم!..

وكذلك تأتي في هذا المقام إسهامات كتب الشيخ الغزالي (الغزو الثقافي يمتد في فراغنا) و (مستقبل الإسلام خارج أرضه وكيف نفكر فيه) وغيرها من الكتب والدراسات..

* وفي مواجهة « الذات الإسلامية » التي تشوهت بالتخلف الموروث، وبالاستلاب التغريبي، قدم الشيخ الغزالي - عليه رحمة الله - العديد من الكتب والدراسات، التي سعت لتجديد « الذات الإسلامية » بالغذاء الإسلامي الصالح والصحيح.. تجديد العقل، وتصفية رؤيته.. وتجديد القلب، وترقيق مشاعره.. وإقامة علاقة التكامل - التي امتاز بها الإسلام - بينهما..

ولقد كان هذا الميدان هو أغنى ميادين المشروع الفكري للشيخ الغزالي بالكتب والدراسات.. فهو ميدان القوة الإسلامية الضاربة، التي يتوقف على صلاحها إحراز النصر الإسلامي على كل الجبهات، وفي مواجهة كل التحديات.

فمن: (خُلق المسلم) إلى (عقيدة المسلم) و (التعصب والتسامح) و (جدد حياتك) و (في موكب الدعوة) و (فقه السيرة) و (ليس من الإسلام) و (هذا ديننا) و (من معالم الحق) و (كيف نفهم الإسلام) و (نظرات في القرآن) و (كيف نتعامل مع القرآن) و (نحو تفسير موضوعي لسور القرآن الكريم) و (المحاور الخمسة للقرآن الكريم) و (مع الله - دراسات في الدعوة والدعاة) و (معركة المصحف)

و(كفاح دين) و(الإسلام والطاقات المعطلة) و(الجانب العاطفي من الإسلام) و(سر تأخر العرب والمسلمين).. وغيرها.. كثير من الكتب والدراسات التي استهدفت تزكية الذات والنفس الإسلامية بالإسلام..

ولقد كان الشيخ الغزالي واعيًا بضرورة إصلاح الداخل الإسلامي، والذات الإسلامية، لزيادة المناعة والمنعة الإسلامية ضد الزحف الغربي على الذات الإسلامية.

ومن عباراته الجامعة في هذه القضية قوله: « إن تحديات الدعوة الإسلامية تجيء – قبل أي زحف خارجي – من داخل أرض الإسلام.. على أن التحدي الأعظم للإسلام كله هو في يقظة كل القوى المعادية له، وتبيتها النية على اغتياله!..

لقد صحت اليهودية، والنصرانية، والشيوعية، والوثنية، وتملكتها رغبة مجنونة للقضاء على هذا الدين، وانتهاز ما يسود بلاده من غفلة وفرقة لتوجيه الضربة الأخيرة!..

وإن الوعظ هو أخف الواجبات التي يتطلبها الإسلام في عصرنا!.. فالجهد الأول – المطلوب – هو: تحريك قافلة الإسلام، التي توقفت، في وقت تقدم فيه حتى عبيد البقر!..

وسوف تتلاشى هذه التحديات كلها يوم يعتنق المسلمون الإسلام، ويدخلون فيه أفواجًا، حكامًا وشعوبًا »!

هكذا تحدث الشيخ الغزالي - عليه رحمة الله - وهكذا يجب أن نعي إنجاز هذا الإمام العظيم.. وهكذا يجب أن يكون الاحتفال بذكرى العلماء العظماء.

رجب (١٤٢٩هـ) يوليو (٢٠٠٨م)

د. محمد عمارة

* * *



تقديم

في سنة (١٩٨٩م) صدر كتاب شيخنا وإمامنا المرحوم الشيخ محمد الغزالي عن (السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث)، فأثار واحدة من المعارك الفكرية الكبرى في الفكر الإسلامي المعاصر.. وكشف عن الأبعاد المعاصرة للتدافع الفكري بين أهل الرأي وأصحاب الأثر.. وقوى التجديد والتقليد في الثقافة الإسلامية الحديثة والمعاصرة..

وأمام سيل الكتب التي طبعت في النقد لهذا الكتاب.. بل والتهجم على صاحبه.. كتبتُ صفحات هذا الكتاب الصغير؛ لأضع القضية في الإطار المنهجي، بصرف النظر عن منطلقات الاتفاق حولها أو الاختلاف..

ولأن هذه الدراسة التي نشرت في الدوريات الفكرية والصحفية سنة (١٩٩١م).. ثم صدرت طبعتها الأولى ككتاب سنة (١٩٩٢م) قد جاءت إبان سيل الكتب الذي انهال ضد الشيخ من أهل الجمود والتقليد، وطلاب المصالح الدنيوية الرخيصة، فلقد كان وقعها لدى الشيخ - رحمه الله - كبيرًا وعظيمًا.. حتى لقد قال لي - والتأثر في عينيه -: إنها أحسن ما كتب في الموضوع.

ولما كانت الطبعة الأولى من هذا الكتاب قد نفدت منذ سنوات.. فلقد آثرت أن أعيد طبعه كما هو، مع إضافات اقتضتها وفاة شيخنا – عليه رحمة الله – في « بطاقة حياته » وفي التعريف بكتبه ومؤلفاته؛ راجيًا أن تلبي حاجة الباحثين والقراء، الذين يتطلعون إلى دراسة منهجية حول شيخنا الغزالي.. وأن تسد فراغًا في الدراسات حول المشروع الفكري لهذا الإمام العظيم، الذي كانت حياته، ولا يزال مشروعه الفكري العنوان والمظلة لتيار الاجتهاد والتجديد في فكرنا الإسلامي المعاصر، على امتداد عالم الإسلام..

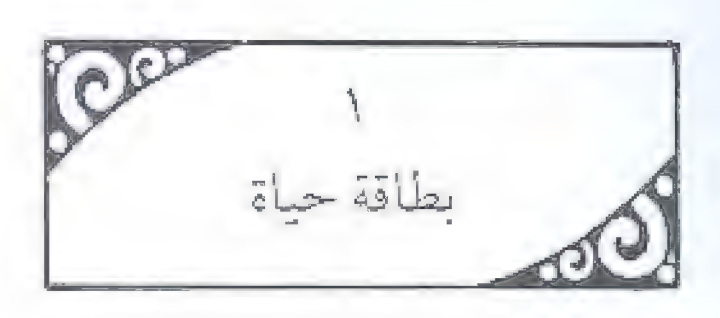
إنها صفحات قد تلبي الكثير من الحاجات الفكرية.. إلى أن ييسر الله تلبية رغبات الكثيرين من عارفي فضل إمامنا الغزالي: النهوض بدراسة شاملة عن مشروعه الفكري الكبير..

والله أسأل أن ينفع بهذه الطبعة الجديدة، كما نفع بالأولى.. إنه نعم المولى ونعم النصير.

القاهرة في: المحرم سنة (١٤١٨هـ) مايو سنة (١٩٩٧م)

د. محمد عمارة

* * *



١
بطاقة حياة

(.. لو كنت « ملكًا » لأبيتُ إلا الانتظام في سلك الأُخوَّة المطلقة مع الجماهير الدنيا، أخدمهم ويخدمونني على السواء!..)

الشيخ محمد الغزالي

* هو « الفقيه - الداعية - المجدد » الشيخ محمد الغزالي السقا..

مصري المولد، والنشأة.. ولد - لأسرة ريفية فقيرة ومتدينة - في قرية « نكلا العنب »، مركز « إيتاي البارود »، محافظة « البحيرة » بدلتا مصر يوم السبت ٥ من ذي الحجة سنة ١٣٣٥هـ ٢٢ من سبتمبر سنة ١٩١٧م. ولقد اختار له والده اسم: محمد الغزالي، تيمنًا بحجة الإسلام أبو حامد الغزالي؛ لنزعة صوفية لدى الوالد..

* وكان الشيخ الغزالي أكبر أخوته - السبعة - ولقد نشأ وأسرته الفقيرة تعلق عليه الآمال.

ولقد أتم حفظ القرآن الكريم وهو في العاشرة من عمره؛ والتحق - طالبًا للعلم الإسلامي - بالمعهد الديني التابع للأزهر الشريف، بمدينة الإسكندرية، فحصل على الشهادة « الابتدائية » سنة (١٩٣٢م).. ومن نفس المعهد - القسم الثانوي - حصل على الشهادة الثانوية الأزهرية سنة (١٩٣٧م)..

* وفي سنة (١٩٣٧م) التحق بالتعليم العالي الأزهري - كلية « أصول الدين » - بالقاهرة.. وفيها تلقى العلم على كوكبة من كبار العلماء، منهم: الشيخ عبد العظيم الزرقاني، والإمام الأكبر الشيخ محمود شلتوت.. وتخرج من « أصول الدين »، فنال شهادة « العالمية » سنة (١٩٤١م).. كما حصل - من نفس الكلية - على إجازة الدعوة والإرشاد سنة (١٩٤٣م)..

* وفي نفس العام الذي التحق فيه بكلية أصول الدين سنة (١٩٣٧م) التقى بمرشد جماعة الإخوان المسلمين: الشيخ حسن البنا (١٣٢٤ - ١٣٦٨هـ/ ١٩٠٦ - ١٩٤٩م) وأصبح عضوًا بالجماعة، فبدأت بذلك أهم تحولات حياته الفكرية والعملية..

* ولقد تزوج الشيخ الغزالي وهو لا يزال طالبًا بكلية أصول الدين، وأنجب من الأولاد تسعة.. يحيا منهم ولدان - ضياء.. وعلاء - وخمس سيدات..

* كما بدأت ممارسته للدعوة الإسلامية أثناء طلبه العلم بكلية أصول الدين، عندما عمل إمامًا وخطيبًا بأحد مساجد القاهرة.. فلما نال شهادة العالمية سنة (١٩٤١م)، عين - في العام التالي سنة (١٩٤٢م) - بوزارة الأوقاف: إمامًا وخطيبًا بمسجد « العتبة الخضراء » بوسط القاهرة.. ولقد تدرج في مناصب الدعوة والوعظ والإرشاد بوزارة الأوقاف المصرية، فتولى التفتيش بالمساجد.. والوعظ بالأزهر الشريف.. ووكيلًا،

فمديرًا للمساجد.. فمديرًا للتدريب.. فمديرًا للدعوة والإرشاد في ٢ يوليو سنة ١٩٧١م.. فوكيلًا لوزارة الأوقاف لشؤون الدعوة الإسلامية، في ٨ مارس سنة ١٩٨١م.

* ولقد تفتحت مواهبه الأدبية والفكرية على يدي الشيخ حسن البناء وفي صحافة جماعة الإخوان - التي أصبح من كتابها - حتى أُطلق عليه لقب « أديب الدعوة ».. وكتب إليه الأستاذ البنا خطابًا - في (١٩٤٥م) - يقول له فيه:

« أخي العزيز الشيخ محمد الغزالي: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته. وبعد: قرأت مقالك « الإخوان المسلمون والأحزاب » في العدد الأخير من مجلة « الإخوان ». فطربت لعبارته الجزلة ومعانيه الدقيقة، وأدبه العف الرصين.

هكذا يجب أن تكتبوا - أيها الإخوان المسلمون - اكتب دائمًا، وروح القدس يؤيدك، والله معك. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته. حسن البنا ».

* ولقد تحمل الشيخ الغزالي نصيبه من المحن والمكاره التي أصابت جماعة الإخوان المسلمين.. فقضى في معتقل « الطور » - بشبه جزيرة سيناء - قرابة العام، سنة (١٩٤٩م).. وأقل من عام في سجن « طره »، إبان التحقيقات مع الشهيد سيد قطب سنة (١٩٦٥م).

* ولما شارك في « المؤتمر الوطني للقوى الشعبية » سنة (١٩٦٢م)، كانت له مواقف أثارت ضده حملة صحفية قادها

عدد من الصحفيين الليبراليين واليساريين، وانتصرت له فيها جماهير المساجد.. وكان يخطب الجمعة بمسجد عمرو بن العاص، فتحتشد لسماعه عشرات الألوف.. وعندما كانت تثير انتقاداته الدولة، فتهم بتقييد حريته، كانت تتحرك لنصرته مظاهرات جماهير المساجد.. وفي سنة (١٩٧٤م) كان له - هو والشيخ محمد أبو زهرة - موقف معارض للتعديلات التي أُدخلت على قانون الأحوال الشخصية، فكان يرى أن مشكلة مصر هي في عجز شبابها عن تكاليف الزواج، وليست المشكلة في تعدد الزوجات. فضاقت الدولة بمعارضته، ومنعته من الخطابة بجامع عمرو بن العاص، وسحبوا منه اختصاصاته في وظائف الدعوة، حتى لقد ألغوا المنصب الذي كان يشغله - مدير عام الدعوة -!.. فوجد نفسه على « حصير » - دون مكتب - في « سندرة » ملحقة بمسجد صلاح الدين - بالقاهرة - فجلس على « الحصير » يشتغل بالتأليف!..

* ولما أحس باقتراب المخاطر منه إبان التحقيقات مع صالح سرية - المتهم الأول فيما عرف بقضية « الفنية العسكرية » الذي ذكر أنه زار الشيخ الغزالي مرة!- سعى إلى الخروج من مصر، فسافر إلى المملكة العربية السعودية، أستاذًا بجامعة أم القرى - بمكة المكرمة - فأمضى بالجامعات السعودية: ما بين سنة (١٩٧٤م) وسنة (١٩٨١م). وفي (١٩٨١م) - الذي رُقي فيه إلى منصب وكيل وزارة الأوقاف لشؤون الدعوة - قدم

استقالته من الوزارة، عندما اختلف مع سياسة الدولة في الصلح مع إسرائيل..

* وكان تعرُّف الشيخ الغزالي على الواقع العربي والإسلامي - خارج مصر - قد بدأ مبكرًا.. ففي سنة (١٩٥٢ - ١٩٥٣م) شغل وظيفة رئيس « التكية المصرية » بمكة المكرمة.. وفي الأعوام من سنة (١٩٦٨م) إلى (١٩٧٣م) أمضى شهر رمضان في دول الكويت وقطر والسودان والمغرب.. وشارك في ملتقيات الفكر الإسلامي بالجزائر بانتظام - سنويًا - منذ سنة (١٩٨٠م).. وعمل في قطر - أستاذًا زائرًا - ما بين سنة (١٩٨٢م) وسنة (١٩٨٥م).. وعاش بالجزائر ما بين سنة (١٩٨٥م) وسنة (١٩٨٨م) منشئًا وراعيًا لجامعتها الإسلامية - جامعة الأمير عبد القادر، ومشرفًا على مجلسها العلمي - وعلى امتداد هذه الأعوام الخمسة عشر (١٩٧٤ - ١٩٨٨م) عاش واقع الأمة، واستوعب مشكلاتها، وأعطى لجماهيرها، وغدا أبرز فقهاء الدعوة والتجديد والأصالة والاستنارة على امتداد وطن العروبة وعالم الإسلام..

* ولقد امتلك الشيخ الغزالي حرية المفكر، واستقلالية المجدد منذ بداية عقد الخمسينيات، عندما استقل عن تنظيم جماعة الإخوان المسلمين - لخلافه مع مرشدها العام الأستاذ حسن الهضيبي - فكان تفرغه للدعوة والتأليف.. وظل محافظًا على استقلالية الفكر، حتى بعد أن عادت المودة والتعاون والعلاقات مع جماعة الإخوان في سنوات عمره الأخيرة..

* وإذا كان الشيخ الغزالي قد تتلمذ على حسن البنا، الذي تتلمذ على رشيد رضا: تلميذ محمد عبده - أنجب تلاميذ جمال الدين الأفغاني - فلقد حدد الشيخ الغزالي منهاج هذه المدرسة التي ينتمي إليها مشروعه الفكري التجديدي - في معرض حديثه عن مدارس الفكر الإسلامي - مدرسة الرأي والأثر.. والموازنة بينهما - كما هو الحال عند ابن تيمية - مع ميل للأثر.. ومدرسة الاختيار الشخصي والتنسيق بين وجهات النظر المختلفة - حدد منهاج مدرسته، التي وازنت بين « الرأي » و « الأثر » على نحو متميز عن موازنة مدرسة ابن تيمية، وذلك « بترويجها للعقل، وتقديم دليله، واعتبارها العقل أصلًا للنقل.

وهي تقدم الكتاب على السنة، وتجعل إيماءات الكتاب أولى بالأخذ من أحاديث الآحاد، وهي ترفض مبدأ النسخ، وتنكر إنكارًا حاسمًا أن يكون في القرآن نص انتهى أمده، من ثم فهي تنكر التقليد المذهبي، وتحترم علم الأئمة، وتعمل على أن يسود الإسلام العالم بعقائده وقيمه الأساسية، ولا تلقي بالًا إلى مقالات الفرق والمذاهب القديمة أو الحديثة »[1].

فهو عَلَم متميز من أعلام هذه المدرسة، التي تمايزت اجتهادات وتجديدات أعلامها في هذا الإطار.

---

(١) دستور الوحدة الثقافية بين المسلمين، (ص ٦٩ - ٧٧)، طبعة دار الوفاء، القاهرة سنة (١٤١٣هـ / ١٩٩٣م).

* ولقد كان الشيخ الغزالي يوجز الحديث عن الإسلام عندما يقول: إنه « قلب تقي، وعقل ذكي » معبرًا - بذلك - عن منهاج الوسطية الإسلامية الجامع - في مصادر المعرفة - بين كتابي الله: كتاب الوحي المسطور، وكتاب الكون المنظور.. وفي سبل المعرفة، بين: العقل والنقل، والتجربة والوجدان.. ولذلك كان عطاء الشيخ الغزالي في « القدوة » منافسًا لعطائه في « الفكر »، كما برئ مشروعه الفكري من الفصام بين العقل والقلب، وامتزجت فيه الرؤية لمشكلات الأمة والإنسانية، والماضي والحاضر والمستقبل جميعًا..

- ففي مواجهة الاستبداد المالي والمظالم الاجتماعية: قدم عدالة الإسلام، في العديد من الآثار الفكرية.. من مثل: (الإسلام والأوضاع الاقتصادية) و (الإسلام والمناهج الاشتراكية) و (الإسلام المفترى عليه بين الشيوعيين والرأسماليين) و (الإسلام في وجه الزحف الأحمر).. إلخ.

- وفي مواجهة الاستبداد السياسي: دافع عن الشورى الإسلامية، في كتبه: (الإسلام والاستبداد السياسي) و (حقوق الإنسان بين تعاليم الإسلام وإعلان الأمم المتحدة).. إلخ.

- وفي مواجهة الهيمنة الغربية وتيارات العلمانية والمادية والإلحاد والتغريب قدم: (من هنا نعلم) و (دفاع عن العقيدة والشريعة ضد مطاعن المستشرقين) و (الغزو الثقافي يمتد في

فراغنا) و (مستقبل الإسلام خارج أرضه وكيف نفكر فيه) و (صيحة تحذير من دعاة التنصير).. إلخ.

- وفي مواجهة الجمود والخرافة والتقليد قدم: (دستور الوحدة الثقافية بين المسلمين) و (تراثنا الفكري في ميزان الشرع والعقل) و (قضايا المرأة بين التقاليد الراكدة والوافدة) و (السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث).. إلخ.

- ولتجديد الذات الإسلامية: قدم عشرات الكتب، من مثل: (خلق المسلم) و (عقيدة المسلم) و (جدد حياتك) و (فقه السيرة) و (كيف نفهم الإسلام؟) و (الجانب العاطفي من الإسلام) و (سر تأخر العرب والمسلمين) و (نظرات في القرآن) و (كيف نتعامل مع القرآن؟).. إلخ.

* ولقد كانت رسالة الشيخ الغزالي في حياته الفكرية والدعوية والتعليمية والعملية هي إحياء الأمة بالإسلام، وتحريكها بطاقاته الإحيائية.. « فالجهد الأول المطلوب هو تحريك قافلة الإسلام، التي توقفت في وقت تقدم فيه حتى عبيد البقر.. وسوف تتلاشى التحديات التي تواجهنا يوم يعتنق المسلمون الإسلام، ويدخلون فيه أفواجا، حكاما وشعوبا »[1]!..

* وكان داعية لتحرير العقل الإسلامي من قيود الجمود والتقليد، وذلك بالتمييز بين مصادر الإسلام المعصومة، وبين

(1) دستور الوحدة الثقافية بين المسلمين، (ص ١٩)، و (هموم داعية)، (ص ١٧)، طبعة سنة (١٩٨٣م).

الفكر الإسلامي غير المعصوم، ورفض الادعاء بأن الأولين لم يدعوا للآخرين مجالًا في الاجتهاد والتجديد، « فالإسلام هو صانع الأئمة المجتهدين، وهم لم يصوغوه.. ومصادر الإسلام معصومة؛ لأنها من عند الله، ولكن التفكير فيها والاستنباط منها غير معصوم؛ لأنه من عند الناس.. والأئمة الأوائل كانوا روادًا في تأسيس الفقه الإسلامي، والرائد قد يشغله الاكتشاف عن الموازنة والتقدير، ولعل من يجيء بعده يكون أقدر على التنظيم والمراجعة والموازنة والاختيار.. »[1].

* وكان يرى أن صلاح دنيا الناس - بالعدالة الاجتماعية - شرط لصلاح قلوبهم بدين الإسلام.. فعدالة الإسلام هي الطريق إلى فضائل الإسلام وتقوى القلوب.. « إذ من العسير أن تملأ قلب إنسان بالهدى، إذا كانت معدته خاليًا.. أو أن تكسوه بلباس التقوى، إذا كان جسده عاريًا.. فلا بد من التمهيد الاقتصادي الواسع، والإصلاح العمراني الشامل، إذا كنا مخلصين حقًّا في محاربة الرذائل باسم الدين، أو راغبين حقًّا في هداية الناس لرب العالمين! »[2].

* وكان يدعو - في فهم المصدر الأول للإسلام: القرآن الكريم - إلى تدبر محاوره الجامعة: التوحيد الذي هو قانون الوجود ونظام الحياة، وطريق تحرير الإنسان وملكاته من العبودية

(١) دستور الوحدة الثقافية، (ص ٨٥ - ٩٣).

(٢) الإسلام والأوضاع الاقتصادية، (ص ٦١، ٦٢)، طبعة سنة (١٩٨٧ م).

للطواغيت، وآيات الله الكونية، المبثوثة في الأنفس والآفاق، والتي على تعقلها ترتفع أركان الدين وأعلام الإيمان.. والقصص القرآني، كأداة للتربية والتزكية، ومعالم على طريق الاعتقاد الديني.. ونبأ الغيب والبعث والجزاء، ودوره في بناء الأخلاق.. والتربية والتشريع، لصلاح الدنيا، الذي يتأسس عليه صلاح يوم الدين[1]..

* وكان مدافعًا عن سنة رسول الله ﷺ، فهي مع القرآن: «قوام الإسلام، وهي الامتداد لسنا القرآن، والتفسير لمعناه، والتحقيق لأهدافه ووصاياه، وكما أنه لا فقه إلا بسنة، فلا سنة بغير فقه.. والحكم الديني لا يؤخذ من حديث واحد مفصول عن غيره، وإنما يضم الحديث إلى الحديث، ثم تقارن الأحاديث المجموعة بما دل عليه القرآن الكريم، فإن القرآن هو الإطار الذي تعمل الأحاديث في نطاقه لا تعدوه.. والأحكام في الأحاديث الصحيحة مأخوذة ومستنبطة من القرآن، استنبطها النبي ﷺ من القرآن، بتأييد إلهي، وبيان رباني»، فهي بيان نبوي للبلاغ القرآني، وإرادة من الله لنبيه؛ ليفصِّل ما أجمله القرآن..[2]

---

(1) المحاور الخمسة للقرآن الكريم، طبعة سنة (١٩٩٤م).

(2) دستور الوحدة الثقافية، (ص ٣٣، ٣٤، ٣٦ – ٣٨)، و (السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث)، (ص ١١٨، ١١٩) طبعة سنة (١٩٨٩م)، و (هذا ديننا)، (ص ١٩٧)، طبعة سنة (١٩٦٥م).

* ولقد عاش الشيخ الغزالي حياته وقلبُه معلقٌ بالمساجد.. وكان حلم حياته - الذي حققه عندما كان مسؤولًا عن الدعوة بوزارة الأوقاف - أن تصبح المساجد جامعات إسلامية حرة لشباب الأمة وجماهيرها، تلقى فيها الدروس المنظمة في علوم الدين والحضارة الإسلامية.. حتى لقد كان آخر الأوراق التي كتبها إلى الندوة التي عقدت بجامعة الأزهر - يوم ٥ مارس سنة ١٩٩٦م - حول المساجد والدعوة الإسلامية - والتي حال سفره دون حضوره لها - كانت بمثابة « الوصية » التي كتبها؛ لتحويل المساجد إلى جامعات للثقافة الإسلامية.. ولقد اتخذتها « الندوة » « توصيات » مداولاتها.. وكان ذلك قبل وفاته بأربعة أيام!..

* ولقد شرُفَت بعضوية الشيخ الغزالي العديد من المجامع الفكرية والمؤسسات العلمية.. من مثل « مجمع البحوث الإسلامية » بالأزهر الشريف، « والمجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية » بالأردن، و « المعهد العالمي للفكر الإسلامي » بواشنطن، « والهيئة الخيرية الإسلامية العالمية » بالكويت.. إلخ.. إلخ.

* كما حصل على العديد من الأوسمة والجوائز.. من مثل:

١- وسام الأمير - وهو أعلى وسام بالجزائر - سنة (١٩٨٨م)..

٢- جائزة الملك فيصل العالمية - لخدمة الإسلام - سنة (١٩٨٩م).

٣- جائزة الامتياز - من باكستان - سنة (١٩٩١م)..

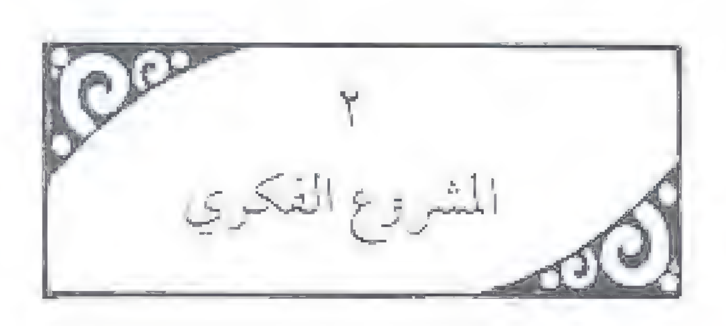
٤ - جائزة الدولة التقديرية - من مصر - سنة (١٩٩١م).

٥ - جائزة علي وعثمان حافظ - للفكر العام - سنة (١٩٩١م).

* ولقد عاد الشيخ الغزالي للإقامة الدائمة بمصر - في منزله رقم (١٠) بميدان الدكتور سليمان - بحي الدقي - بالقاهرة - منذ سنة (١٩٨٨م).. وكانت أسفاره إسهامًا في الملتقيات العلمية والفكرية.. وكان من أواخرها رحلته إلى الأمم المتحدة - حيث خطب في عيدها الخمسين، ممثلًا للأزهر الشريف سنة (١٩٩٦م) - وأمضى بين مسلمي أمريكا - في تلك الرحلة - ثلاثة أسابيع..

* وبعد أسابيع من عودته، سافر إلى المملكة العربية السعودية؛ للمشاركة في المهرجان الوطني للثقافة - الجنادرية - حيث لبى نداء ربه، فصعدت روحه إلى بارئها - في قاعة الملك فيصل - والقلم في يده يدون نقاطًا للدفاع عن الإسلام، مساء يوم الجمعة ١٧ شوال سنة ١٤١٦هـ ٩ مارس سنة ١٩٩٦م؛ ليدفن « بالبقيع »، في المدينة المنورة، عاصمة النبوة، على ساكنها أفضل الصلاة والسلام.

* * *



٢
المشروع الفكري

(.. إن الجهد الأول المطلوب هو تحريك قافلة الإسلام، التي توقفت في وقت تقدم فيه حتى عبيد البقر!! وسوف تتلاشى التحديات التي تواجهنا يوم يعتنق المسلمون الإسلام، ويدخلون فيه أفواجًا، حكامًا وشعوبًا!!..)

الشيخ محمد الغزالي

لقد تخرج الشيخ محمد الغزالي – الذي ولد سنة (١٩١٧م) – تخرج من كلية أصول الدين بجامعة الأزهر في سنة (١٩٤١م).. فهو مني بمنزلة الأستاذ من التلميذ، فلقد دخلت الأزهر ملتحقًا بالسنة الأولى بمعهد دسوق الابتدائي في سنة (١٩٤٥م).. وكان الشيخ الغزالي يومئذ شيخًا وأستاذًا وداعية وكاتبًا في صحافة جماعة الإخوان المسلمين..

ومنذ سنة (١٩٤٧م) بدأ الشيخ الغزالي إصدار سلسلة الكتب التي بلغت الآن أكثر من خمسين كتابًا، والتي كونت معالم « المشروع الفكري »، الذي تقدم به إلى الناس، وكان كتابه (الإسلام والأوضاع الاقتصادية) هو الأول في هذا المشروع الفكري، الذي احتل فيه كتابه (السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث) رقم الخمسين!..

ومع ذلك فأنا لم أبدأ التعرف المنظم على فكر الشيخ الغزالي، والمتابعة المنهجية لمشروعه الفكري إلا منذ سنوات قريبة جدًا.. أما عهدي بلقائه، وتعرفي على مجلسه وحضوره، فإنه لم يبلغ بعد السنوات الثلاث؟![1].

ولقد أدركت - وأنا الذي سبق ودرست الآثار الفكرية لأكثر من ثلاثين من أعلام الفكر الإسلامي، وكتبت عنهم الكتب والدراسات - أدركت أنني حيال الشيخ الغزالي لست بإزاء مجرد داعية متميز، أو عالم من جيل الأساتذة العظام، أو مؤلف غزير الإنتاج، أو مفكر متعدد الاهتمامات، أو واحد من العاملين على تجديد فكر الإسلام؛ لتتجدد به حياة المسلمين.. أدركت أنني بإزاء جميع ذلك، وأكثر منه.. وأهم.. فالرجل صاحب رسالة، جعل من حياته - ومن ثمراتها: فكره وقلمه - مشروعًا فكريًا متكاملًا، هو عطاء مواهبه الفذة، الذي قدمه في ميدان تجديد الإسلام، وإنهاض المسلمين..

* فهو - في مواجهة الاستبداد المالي والمظالم الاجتماعية، التي شلت قدرات الأمة وعطلت ملكاتها المادية والمعنوية - خاض أولى معاركه، وأرسى في صرح مشروعه الفكري عددًا من اللبنات التي تمثلت في كتبه: (الإسلام والأوضاع الاقتصادية) و (الإسلام والمناهج الاشتراكية) و (الإسلام المفترى عليه بين الشيوعيين والرأسماليين) و (الإسلام في وجه الزحف الأحمر)..

---

(١) الإشارة إلى تاريخ كتابة هذه الصفحات سنة (١٩٩٠م).

* وهو – في مواجهة الاستبداد السياسي، الذي حرم الأمة من ثمرات الشورى الإسلامية، فأعجزها عن مواجهة تبعات رسالتها، ومجابهة تحديات أعدائها – نراه يقدم في معالم مشروعه الفكري كتبه: (الإسلام والاستبداد السياسي) و (حقوق الإنسان بين تعاليم الإسلام وإعلان الأمم المتحدة)، وغيرها من الكتب والدراسات التي ضمتها كتب أخرى..

* وهو – في مواجهة تحديات الحضارة الغربية، التي حاولت وتحاول طمس التميز الحضاري للإسلام، ونسخ هوية أمته، ومسخ الروح الإسلامية المتميزة في علوم حضارتنا ونظمها – قدم العديد من الأعمال الفكرية، التي مثلت كتائب في معاركنا الفكرية ضد التغريب والاستلاب الحضاري.. فكتابه (من هنا نعلم) مواجهة مع محاولات « علمنة الإسلام » ليكون مسيحية تدع ما لقيصر لقيصر وما لله لله!.. وكتابه (حقيقة القومية العربية) مواجهة للمفاهيم الغربية في القومية، تلك التي استعارها فريق منا، فكانت عدوانًا على عالمية الإسلام، وانتقاصًا من وحدة الأمة.. أما كتابه (دفاع عن العقيدة والشريعة ضد مطاعن المستشرقين) فإنه نزال مع المستشرق المجري جولد تسيهر (١٨٥٠ - ١٩٢١م)، الذي أراد في كتابه (العقيدة والشريعة) تقديم الإسلام كاستعارات ملفقة من عقائد الآخرين وشرائعهم!..

وكذلك تأتي - في هذا المقام - إسهامات كتب الشيخ الغزالي (الغزو الثقافي يمتد في فراغنا) و (مستقبل الإسلام خارج أرضه وكيف نفكر فيه)، وغيرها من الكتب والدراسات..

* وهو - في مواجهة « الذات الإسلامية » التي تشوهت بالتخلف الموروث وبالاستلاب التغريبي - قدم العديد من الكتب والدراسات التي سعت لتجديد « الذات الإسلامية » بالغذاء الإسلامي الصالح والصحيح.. تجديد العقل وتصفية رؤيته، وتجديد القلب وترقيق مشاعره، وإقامة علاقة التكامل - التي امتاز بها الإسلام - بينهما..

ولقد كان هذا الميدان هو أغنى ميادين المشروع الفكري للشيخ الغزالي بالكتب والدراسات.. فهو ميدان القوة الإسلامية الضاربة، التي يتوقف على صلاحها إحراز النصر الإسلامي على كل الجبهات، وفي مواجهة كل التحديات.. فمن: (خلق المسلم) إلى (عقيدة المسلم) و (التعصب والتسامح) و (جدد حياتك) و (في موكب الدعوة) و (فقه السيرة) و (ليس من الإسلام) و (هذا ديننا) و (من معالم الحق) و (كيف نفهم الإسلام؟) و (نظرات في القرآن) و (مع الله - دراسات في الدعوة والدعاة) و (معركة المصحف) و (كفاح دين) و (الإسلام والطاقات المعطلة) و (الجانب العاطفي من الإسلام) و (سر تأخر العرب والمسلمين).. وغيرها.. وغيرها.. كثير من الكتب والدراسات، التي استهدفت تزكية الذات والنفس الإسلامية بالإسلام..

* وفي مواجهة الجمود، والحَرْفِيَّة النصوصية، و « الظاهرية البدوية ».. التي تغض من شأن ملكة العقل، فتفل عزم المسلمين في مواجهة التحديات المعاصرة، وتكرس التخلف الموروث.. في مواجهة هذا الجناح من أجنحة التحدي الحضاري، الذي يواجه الأمة الإسلامية، قدم المشروع الفكري للشيخ الغزالي العديد من الإسهامات: فصولًا في كتب - كما في (دستور الوحدة الثقافية بين المسلمين) - وكتبًا أفردها لهذه المهمة، يأتي في مقدمتها أحدث كتبه: (السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث)، والذي أثار - ولا يزال يثير - معركة فكرية خصبة في صفوف الإسلاميين، على امتداد وطن الإسلام!..

فهو إذن « مشروع فكري » يستجيب به صاحبه - استجابة إيجابية وفاعلة - للتحديات التي تواجه محاولات الأمة للنهوض والتقدم والانعتاق.. وليس مجرد إسهام فكري، تتناثر كتبه دون رؤية شاملة، وموقف واع، وتخطيط وتدبير وإحكام.. وفي هذا « المشروع الفكري »، الذي بلغت كتبه حتى الآن ما يزيد عن خمسين كتابًا، تتكامل المعالم والسمات التي ضربنا لبعضها النماذج والأمثلة..

لقد واجه الرجل بمشروعه الفكري هذا، وأيضا بممارساته الحياتية التي أرادها زرعًا ورعاية لهذه البذور في عقول الأمة وقلوبها.. واجه بذلك التحديات العاتية التي تواجه الإسلام والمسلمين في عصرنا الراهن.. ووفق عبارته: « فإن تحديات الدعوة الإسلامية تجيء - قبل أي زحف خارجي - من داخل

أرض الإسلام.. على أن التحدي الأعظم للإسلام كله هو في يقظة كل القوى المعادية له، وتبييتها النية على اغتياله!.. لقد صحت اليهودية، والنصرانية، والشيوعية، والوثنية وتملكتها رغبة مجنونة للقضاء على هذا الدين وانتهاز ما يسود بلاده من غفلة وفرقة لتوجيه الضربة الأخيرة!»[1].

وفي مواجهة هذه التحديات العاتية لم يكن «الداعية» الشيخ محمد الغزالي «واعظًا»، كما يحسب الناس أن الوعظ هو مهمة «الدعاة»!.. ففي رأيه «أن الوعظ هو أخف الواجبات التي يتطلبها الإسلام في عصرنا!.. فالجهد الأول المطلوب هو: تحريك قافلة الإسلام، التي توقفت في وقت تقدم فيه حتى عبيد البقر[2] وسوف تتلاشى هذه التحديات كلها يوم يعتنق المسلمون الإسلام، ويدخلون فيه أفواجًا، حكامًا وشعوبًا!!..»[3].

وفي هذا السبيل كان العطاء الذي قدمه الشيخ الغزالي في «مشروعه الفكري» الكبير..

* * *

---

(1) دستور الوحدة الثقافية بين المسلمين، (ص ١٩)، طبعة الجزائر سنة ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م).

(2) هموم داعية، (ص ١٧)، طبعة سنة (١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م).

(3) دستور الوحدة الثقافية بين المسلمين، (ص ١٩).

٣

تعريف موجز بكتب الغزالي[1]

١ - الإسلام والأوضاع الاقتصادية:

تقع الطبعة السابعة من هذا الكتاب في (٢١٤) صفحة، وقد صدرت عن دار الصحوة (١٩٨٧م)، وكانت الطبعة الأولى من الكتاب عام (١٩٤٧م)، أول ما أصدر الغزالي من كتب، وقد كتب المؤلف مقدمة الطبعة السابعة مؤكدًا أن في الكتاب لمحات وجب إعادة النظر فيها، وأن كثيرًا من مواطئ الإقدام تحتاج إلى تبيين، وأن بعض الآراء والاجتهادات ربما تحتاج إلى تمحيص، مع ظهور حقائق جديدة، مع ما أفاده المؤلف من تجربة العقود الماضية.

ومن عناوين الكتاب: الطبقات المترفة والطبقات البائسة، الصراع بين الخير والشر، هل للرذائل أسباب اقتصادية؟ هل

---

(١) اعتمدنا في هذا « التعريف » ما جاء في الكتاب الذي أصدره المعهد العالمي للفكر الإسلامي عن (العطاء الفكري للشيخ محمد الغزالي)، والذي ضم وقائع وأبحاث « حلقة دراسية » أقامها المعهد - في عمان - مع « المجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية » و « جمعية الدراسات والبحوث الإسلامية » ٤ صفر سنة ١٤١٧هـ ٢٠ يونية سنة ١٩٩٦م، (ص ٢٢٩ - ٢٦٠) طبعة عمان - الأردن - (١٩٩٦م).

للفضائل أسباب اقتصادية؟ الاستعمار الداخلي يمهد للاستعمار الخارجي، سوء استغلال الدين في حل المشاكل العامة، ضوابط الملكية الخاصة في الإسلام، هل تغني ضريبة الأرض عن زكاتها؟ المجتمعات المنحطة لا يزدهر فيها دين، قيمة العقل والدين.

٢ - الإسلام والمناهج الاشتراكية:

يقع الكتاب في (٢٧٠) صفحة، وهو من منشورات دار الكتب الحديثة، وهذا الكتاب صيحة تنبيه ضد ما يحيق بالإسلام من تآمر ومن تهديد لشرف الدعاة إليه، وهو دعوة ممثلة بالتفاؤل للعودة إلى منابع الإسلام الأصيلة، وتحديد موقفه من العلم والنظام السياسي، والنظام الاقتصادي، والنظام الاجتماعي، ومواقفه من المذاهب الحديثة.

ومن أبرز عناوينه: الإسلام في أوطانه، شرف الدعاة إلى الإسلام مهدد، التأمين الاجتماعي، مجتمع مثالي، عمل الدولة، فلسفة الغنى والفقر، القعود عن الدنيا عدم للدين، الفساد السياسي أخبث علل المسلمين، توزيع الملكيات، موضع الفرد من الحياة العامة، نظام ملكية الأرض في الإسلام، الدين والربا، الاحتكار، الصراع بين الشيوعية والإسلام.

٣ - الإسلام المفترى عليه بين الشيوعيين والرأسماليين:

يقع الكتاب في (١٧٨) صفحة، وكانت الطبعة الأولى من الكتاب قد صدرت عن دار الكتاب العربي في القاهرة عام (١٩٥٠ م)، ويقول المؤلف في مقدمة الكتاب: « كادت هذه

الصحائف تضيع في أثناء الأزمة العصبية التي أصابت الفكر والقلم، وطمست الحقوق والحريات، على عهد الاحتلال الداخلي للإدارة المصرية، أيام حكم الأقليات السياسية في الفترة (١٩٤٤ - ١٩٤٩م)... وقد تم استنقاذ هذه الصحائف من براثن العدم، برغم أن كثيرًا من غيرها ضاع في خلال الإرهاب المنظم الذي خرب البيوت، وفتح المعتقلات.. ولقد نشرت في الكتابين السابقين هذا الكتاب بحوثًا مستفيضة عن حقيقة النظام المالي في الإسلام، أو ما أسميناه على سبيل التجوز (الاشتراكية الإسلامية)، وأستطيع القول بأننا أسخطنا الرأسماليين والشيوعيين بهذا المنهج الذي جنحنا إليه ».

وقد نشر أغلب الكتاب من قبل فصولاً متفرقة، على نحو ثلاثين عددًا من إحدى المجلات الدينية، ويؤكد المؤلف في مقدمة الطبعة الثالثة أن الكتاب وأخويه من قبل (الإسلام والأوضاع الاقتصادية) و (الإسلام والمناهج الاشتراكية) أول ما خُط في اللغة العربية من كلام في هذا الموضوع، وأن هذا الكلام كان مستغربًا في ميادين الدين والأدب والسياسة، وأنه - أي الشيخ الغزالي - بدأ السير وحده في هذا الميدان، ثم أدركه بعد من أدركه من أربى وأحاد.

والكتاب في مجمله كشف جريء للمظالم الاقتصادية المؤلمة التي تئن تحت وطأتها الشعوب في البلدان الخاضعة للاستعمار الأبيض والأحمر على السواء.. وقد جاءت مقالات هذا الكتاب

قصيرة مختصرة، ولكنها مجمعة في فصول عامة بالعناوين التالية: الحضارة بين الإيمان والإلحاد، دعائم الأخوة العامة، نماذج العدالة في الإسلام، الفقه الإسلامي يساير التطور الاقتصادي، المتحدث الرسمي باسم الإسلام، دروس من السماء.

٤- الإسلام والاستبداد السياسي:

يقع الكتاب في (٢٢٧) صفحة، وهو من منشورات دار الكتب الإسلامية، الطبعة الثالثة (١٩٨٤م). وأصل الكتاب محاضرات ألقاها الغزالي في معتقل الطور عام (١٩٥١م)، ونشر بعضها فيما بعد في بعض المجلات، ولم تجمع في كتاب إلا بعد بضع عشرة سنة، وكان لها دوي بعيد المدى في إقلاق الظلمة، وكانت استجابة القدر لها أسرع مما يتصور الكثيرون، وقد هتك المؤلف بهذا الكتاب أستار الاستبداد، وحذر الشعوب من مغبة الاستسلام له في أحوال المجتمع والدولة.

ويؤكد الشيخ الغزالي في الكتاب أن الإسلام لم يعرف حكم الفرد أو الحكم الدكتاتوري، بل كانت تعاليمه ومبادؤه تدعو إلى الشورى والرأي الجماعي، وذلك كان حال المسلمين على عهد رسول الله ﷺ والخلفاء الراشدين، كما حث الإسلام على الجهاد، فجعله واجبًا على كل مسلم لديه القدرة على الجهاد، ثم يتناول الشيخ الغزالي بعض القضايا المعاصرة ليقول رأيه فيها.

ويتضمن الكتاب: الشورى، الجهاد، الرق في الجاهلية، قضايا معاصرة، قضايا إسلامية.

٥- من هنا نعلم:

يقع الكتاب في (٢٤٣) صفحة، وهو من منشورات دار الكتب الحديثة، الطبعة السادسة (١٩٦٥م). وفي هذا الكتاب يرد الشيخ الغزالي على كتاب (من هنا نبدأ) للأستاذ خالد محمد خالد، لما فيه من شطط وخلط للمفاهيم الإسلامية؛ لأن حرية الرأي لا تعني حماية الخطأ والسكوت عليه، وبيّن المؤلف أن علاقة الدين بالدولة في الإسلام وحدة لا تقبل التجزئة، وأن كل محاولة للفصل بينهما؛ إنما هي إفساد للإسلام وعدوان عليه، من حيث هو عقيدة وشريعة على السواء، ولم يكن الكتاب مجرد رد لشبهات أثارها الشيخ خالد بقدر ما كان دفاعًا عن الإسلام وبيانًا لقيمه، ومع أن الشيخ الغزالي شديد في هجومه، فإنه كان رفيقًا مع الشيخ خالد، بل استمر في علاقته به بعد الكتاب، ورفض فتوى الأزهر بتجريده من شهادته.

ويتضمن الكتاب: ردود الشيخ حول الحدود وضرورة إقامتها، وبدعة فصل الدين عن الدولة، وعن دور المرأة الاجتماعي، وعن الكهانة والإسلام، وعن الديمقراطية، وتحديد النسل، والقومية العربية والإسلام.

٦- تأملات في الدين والحياة:

يقع الكتاب في (٢٥٧) صفحة طبعة دار الدعوة الثانية (١٩٩٢م) الكتاب مجموعة من المقالات والخواطر والبحوث واللفتات، عالجت أمورًا لا تزال تستحق المزيد من النقد

والنظر، وخير ما فيها أنها عرضت الدين على الناس نابضًا بالحياة والحركة، ونشدت للحياة ضوابط الإيمان والتقى، وكتب كثير منها عندما كان الغزالي يحرر مجلة الإخوان المسلمين، وبعض مقالات الكتاب ظهرت فيما بعد على شكل كتب مستقلة، ويتحدث الشيخ الغزالي في مقدمة الكتاب عن بعض ملامح شخصيته، التي تبدو للناس مختلفة عما ألفوه في الدعاة ورجال الدين - كما يسمونهم - فهو لا يطيق التزمت، ولو تكلفه ما أحسنه، وأنه يجنح إلى المرح ويتلمس الجوانب الضاحكة في كل شيء، وأنه شعبي في تصرفه.. وأنه يحب الناس، ويتمنى لهم الخير ويثق في صدق جماهير العامة من المسلمين وتقاتهم.. ويؤكد أن من الدعاة من مشوا في آثار النبوة وصدقوا الله جهادهم؛ لكن في بعض الناس زهادًا مصطنعين ودعاة محترفين!

ومن عناوين الكتاب: سياسة الحرية والكفاح، ذكريات من الريف، في صميم السيرة، نقد وتوجيه، صور من الماضي.

٧- عقيدة المسلم:

يقع هذا الكتاب في (٢٦٢) صفحة، الطبعة الثالثة، لدار الدعوة عام (١٩٩٠م)، ويحوي بحوثًا ميسرة في العقيدة الإسلامية، معززة بأصولها العلمية، وسائرة في هدي نصوص الكتاب والسنة. وهذا الكتاب يمتاز عن كتب الفلاسفة والمتكلمين في أنه يخاطب العقل والقلب، ويثير العاطفة والفكر، ويوقظ

الانفعالات النفسية مع إيقاظ للقوى الذهنية، وهو عمل حاسم في ميدان الإصلاح النفسي والاجتماعي والسياسي.

ولقد حاول المؤلف؛ وهو يكتب عن العقيدة أن يرطب جفاف التفكير العقلي برشحات من المشاعر الحية، ولم يتكلف لذلك إلا أن جعل نصوص الكتاب والسنة نصب عينيه، ولذلك أكثر من الاستشهاد بهذه النصوص على خلاف أمهات الكتب الكلامية، التي لا تكاد تعثر فيها على آية أو حديث إلا ما ندر.

ومن عناوين الكتاب: الحقيقة الأولى، الوحدة المطلقة، كمال الأعلى، القضاء والقدر، العمل أساس الإيمان، الخطيئة والمتاب، النبوات، والخلود.

٨- خلق المسلم:

طبعة دار القلم السادسة، سنة (١٩٨٧م)، في (٢٤٨) صفحة، هذا الكتاب عبارة عن نقول من الكتاب والسنة، ترجع المسلم إلى الفضائل، التي يتم بها دينه، وتصلح بها دنياه وأخراه جميعًا، وقد مهد المؤلف لها وعقب عليها بتفاسير موجزة، تعالج ما انتاب المسلمين في هذه الأعصار من انحراف وهبوط نتيجة ما أصاب أخلاقهم من عقد وعلل.

ويعد الكتاب حلقة ثانية بعد كتاب (عقيدة المسلم)؛ ليكون جزءًا من منهج تربية المسلم على العقيدة الصحيحة والسلوك القويم.

ومن عناوين الكتاب: أركان الإسلام ومبادئ الأخلاق، نحو عالم أفضل، الإنسان بين الخير والشر، الحدود على الجرائم الخلقية، دائرة الأخلاق تشمل الجميع، الصدق، الأمانة.. القصد والعفاف، النظافة والتجمل والصحة، اختيار الأصدقاء، العلم والعقل، الانتفاع بالوقت والاتعاظ بالزمن.

٩ - التعصب والتسامح بين المسيحية والإسلام:

يقع هذا الكتاب في (٣٦٦) صفحة، من منشورات دار التوزيع والنشر الإسلامية، الطبعة الثانية (١٩٩٣م)، قام أحد المسؤولين المسيحيين بالطعن في الإسلام، فتصدى له الغزالي في ذلك الوقت العصيب، فكان هذا الكتاب، وقد تعمد الشيخ ألا يذكر اسم الطاعن حتى يموت في مهده، إن الأحقاد الطائفية والحروب الدينية غريبة على أرض الإسلام، وقد ألِفَ هذا الدين منذ بدأ أن يعاشر غيره على المياسرة والملاطفة، وأن يرعى حسن الجوار فيما يشرع من قوانين ويضع من تقاليد، والإسلام لم يقم على اضطهاد مخالفيه أو مصادرة حقوقهم، أو تحويلهم بالكره عن عقائدهم، أو المساس الجائر بأموالهم وأعراضهم ودمائهم.

وأهم موضوعات الكتاب: المسلمون وأهل الذمة، دخول المسيحية مصر، الإسلام بين التعصب والتسامح، افتراءات المستشرقين على الإسلام، تسامح الإسلام مع الديانات الأخرى.

١٠ - فقه السيرة:

يقع في (٤٩٨) صفحة الطبعة الأولى لدار الريان للتراث في القاهرة عام (١٩٨٧ م).

كتب الشيخ هذا الكتاب وهو دامع العين، جياش المشاعر، وقد كتب معظمه في الروضة الشريفة في المسجد النبوي، وبعضه في مكة أمام الحرم، واعتمد المؤلف فيه على الكتاب والصحيح من السنة والعقل الراشد، وقد سمح الغزالي للشيخ ناصر الدين الألباني بتحقيق الأحاديث الواردة في الكتاب، وحكم على بعض الأحاديث بالضعف، لكن الشيخ لم يتردد في إثبات رأي الألباني شاكرًا له جهده، وموضحًا وجهة نظره في هذه الأحاديث، جمع الغزالي في كتابه هذا بين طريقة المؤرخين المحدثين، الذين يميلون إلى التعليل والموازنة، وربط الحوادث في سياق متماسك، وطريقة القدامى، الذين يعتمدون حشد الآثار وتمحيص الأسانيد، وتسجيل ما دق وجل من الوقائع.

وبذلك جعل المؤلف بهذا الجمع من تفاصيل السيرة موضوعًا متماسكًا يشد أجزاءه روح واحد، ثم وزع النصوص والمرويات الأخرى بحيث تتسق مع وحدة الموضوع.

وبذلك كانت السيرة عنده شيئًا ينمّي الإيمان، ويزكي الخلق، ويلهب الكفاح، وهو يكتب في السيرة كما يكتب جندي عن قائده أو تلميذ عن أستاذه.

وقد جاء الكتاب في تسعة فصول هي: رسالة وإمام، من الميلاد إلى البعث، جهاد الدعوة، الهجرة العامة، أسس البناء للمجتمع الجديد، الكفاح الدامي، طور جديد، أمهات المؤمنين، الرفيق الأعلى.

١١ – في موكب الدعوة:

يقع في (٢٦٣) صفحة، طبعة دار الكتاب العربي، الثانية عام (١٩٥٧م)، في هذا الكتاب يستثير الشيخ الغزالي مشاعر الدعاة، ويستنهض هممهم ويستصلح أوضاعهم، فحارب الوهن، ولم يكتب الشيخ هذا الكتاب ليعبر عن مذهب خاص به في الحياة، وإنما ليبرز رأي الإسلام فيما اعترضه من شؤون.

ويظهر الشيخ في هذا الكتاب حزنه؛ لأن تخلف بعض القادة – في ميدان الدعوة – واضطراب أقدامهم في ميدان الواجب يغثر القوى الإسلامية ويربكها.. والكتاب في جملته نقد لسياسة الجبهة الإسلامية الداخلية؛ باعتبار أن تراخي تلك السياسة واعوجاجها مكن للدجالين والمنافقين.

من أهم عناوينه: موت الأبطال في الطريق، من صور القوة في القرآن، الوطنية الضيقة والوطنية الواسعة، من أخلاق النبوة، هل الحكم الشرعي كلام فارغ؟ نعم.. دين الدولة الإسلام، الإسلام جامعة، جهاد وتربية، استغلال، فتنة لا تعاليم، تحريف الكلم عن مواضعه، ذكرى.

١٢ - ظلام من الغرب:

يقع في (٣٤٣) صفحة، صدرت الطبعة الثانية عام (١٩٦٥م)، عن دار الكتب الحديثة، الكتاب رد على « المستشرقين المصريين » الذين ولدوا في بلادنا لكن عقولهم تربت في الغرب، فهم كفار بالعروبة والإسلام وسفراء للغرب، يهدف الكتاب إلى تجلية هذا الصنف من المستشرقين وتنحيته عن الحياة العامة.

ويتتبع المؤلف في الكتاب الحركات العليلة، والنيات المدخولة والمحاولات المستمرة للنيل من مكانة الدين وإظلام مستقبله، على يد هؤلاء؛ إما عن فساد في عقولهم، أو فساد في ضمائرهم، ويثير المؤلف كل ذلك لصد الجاهلية الحديثة عن اجتياح ديننا وأمتنا.

من أهم عناوينه: بين العقل والعاطفة، عروبة وإسلام، تيارات متدافعة، في ميدان التشريع، جاهلية حديثة، كيف تصان الأخلاق، الأمم بين النماء والفناء، نحو وحدة إسلامية كريمة، الإسلام والمدنية الحديثة.

١٣ - جدد حياتك:

يقع الكتاب في (٢٣٢) صفحة، طبعة دار الدعوة، الأولى لسنة (١٤١٠هـ/ ١٩٨٩م).

وهو مقارنة بين تعاليم الإسلام وبين أصدق وألطف ما وصلت إليه حضارة الغرب في أدب النفس والسلوك، وهو محاولة لرد كتاب (دع القلق وابدأ الحياة) للعلامة: ديل كارنيجي إلى أصوله الإسلامية.

وقد شرح المؤلف فيه وظيفة الفطرة السليمة في تعرف الحق وتعريفه، ذلك أن كثرة البضاعة من نصوص السماء، لا تغني في نفع صاحبها، أو في نفع الناس بما عنده إذا كان ملتاث الطبيعة مريض الفطرة، كما لا ينفع المنظار المقرب، أو المكبر لدى امرئ فقد بصره، بينما سجلت الفطرة السليمة في كتاب « كارينجي » من التجارب والاختيارات ما يعد صورة لحكمة الوحي على لسان رسول الإسلام، فاتفق بذلك وحي التجربة ووحي السماء.

ومن عناوين الكتاب: عش في حدود يومك، كيف تزيل أسباب القلق، آفات الفراغ، لا تبك على فائت، لا تنتظر الشكر من أحد، روحانية الرسول، بقدر قيمتك يكون النقد الموجه لك، حاسب نفسك.

١٤ - ليس من الإسلام:

يأتي الكتاب في (٢٦٢) صفحة، وقد صدرت الطبعة السادسة منه عام (١٩٩١م) عن مكتبة وهبة بالقاهرة، وفي هذا الكتاب رغبة أصيلة لدى المؤلف في تمكين المسلم من أن يحيط علمًا بأصول لا بد منها، وفروع لا غنى عنها تتصل بالإسلام، وتبتعد لغة المؤلف هنا عن المصطلحات الفنية مجتهدًا في التقريب والتوضيح.

اهتم المؤلف بإبعاد الزوائد الضارة، التي أضافها المسلمون إلى دينهم، كما اهتم بضبط المعارف الدينية في حدود أحجامها

الصحيحة، فلا نقص ولا ضم، ولا انكماش ولا تهور، مقتفيًا آثار البدع والخرافات فيفضحها.

ويريد المؤلف أن يوسع آفاق الثقافة الإسلامية وييسرها لمن شاء، ويرفع من أمامها العوائق، ويقرب من جماهير المسلمين ألوانًا من العلم حرموا منها، وينبغي أن تكون بينهم شائعة متداولة؛ فإن التعليم الرحب المحدود أفضل في خدمة الإسلام وإعزاز أمته من التعليم الفني الذي يبقى حكرًا على المتخصصين. ويرى أن هذا الكتاب سوف يغضب بعض الجامدين الذين لا قدم لهم في علوم الدين، وسوف يرون الكتاب امتدادًا لجهاد أئمة طال كفاحهم في إيقاظ العقل الإسلامي.

وأما أبرز عناوين الكتاب فهي: الشريعة الإسلامية، أهداف ومناهج، اختراع في الدين، في الفكر الإسلامي، من بدع العقائد: وحدة الوجود، النزعة القومية، بدع العبادات، بدع العادات.

١٥ - من معالم الحق في كفاحنا الإسلامي الحديث:

يقع الكتاب في (٢٠٠) صفحة (دار الاعتصام بالقاهرة، الطبعة الثانية، بدون تاريخ)، يرى المؤلف أن ما أصاب الإسلام في عصرنا هذا وفي العصور التي سبقته، لا يسأل عنه أعداؤه قدر ما يسأل عنه أبناؤه؛ ذلك أن الخمول والتفريط والقصد المدخول والشهوات المطاعة، لا يمكن أن يتنزل عليها نصر الله.. خصوصًا إذا فشت هذه الرذائل في جبهتنا، وكانت الجبهات المقابلة ظاهرة النشاط والتجرد، والغزالي في هذا لا

يلوم قومه فحسب، وإنما يسارع إلى الاعتراف بتقصيره؛ لكنه يؤكد أنه لن يتوانى عن موقفه في كشف الأخطاء التي انتشرت بين صفوف العاملين لهذا الدين؛ ولذلك فهو يعيد نشر هذا الكتاب والكتاب الآخر في موضوعه - وهو دفنها - لكنه يرى أن من الخطأ إسدال الستار عليها، فهي جزء من تاريخ يجب تدبر أحداثه والإفادة منها.

ومن موضوعات الكتاب: سنن مطردة (حقائق العلاقة مع بني إسرائيل)، ضد الإسلام (أقلام تحارب الإسلام تحت ستار محاربة التعصب)، دروس: (الإسلام مقياس الحكم والتقويم)، السلام المسلح، العلم يدعو إلى الإيمان، بين الغيبة والنقد، طبيعة الإسلام.

١٦ - كيف نفهم الإسلام:

يقع في (٢١٨) صفحة، صدر عن دار الدعوة، الطبعة الأولى عام (١٩٩١م)، في هذا الكتاب إجلاء لمعارف إسلامية صحيحة طويت عن الأمة أو عرفها القليل، وكان ينبغي أن يعرفها العامة، ومحاولة لتغيير ودحض خرافات علمية وخلقية وعقدية فشت في كل البقاع وتوطنت، وما كان ينبغي أن تظهر ولا أن تبقى طويلًا، وإحياء لتقاليد إسلامية عريقة لم يسمع بها الجمهور لتفغر فمه في دهشة، فهي غريبة عليه، بينما حلت مكانها تقاليد ما أنزل الله بها من سلطان، فإذا حاولت تغييرها سمعت صيحات الفزع، كأنك تغير مآثر الدين لا مآثر الجاهلية.

من أهم عناوينه: حول التعريف بالإسلام، مساوئ التعليم الديني، علوم الحياة ونشاطها، الجهل بالدنيا والسقوط فيها، الانفصال التاريخي بين العلم والحكم، العقيدة صلة إلهية ومنهج إنساني، التجديد والاجتهاد في دائرة السنة، لماذا أنا مسلم؟

١٧ - الاستعمار أحقاد وأطماع:

يقع الكتاب في (٢٦٨) صفحة، مطبعة حسان، الطبعة الثالثة (١٩٨٣م)، يتحدث الكتاب عن أكبر أعداء الإسلام وأشدهم خصومة ويصف مآسيه، يورد أحداثًا مخزية عن أفاعيل الاستعمار، ثم يبحث في الإسلام والسلام، ليعرف الناس أي عدل مضاعف كان لدينا، وأي حيف مضاعف وقع علينا! ويعرض لحركة الارتداد الخلقي والثقافي والتشريعي التي أحدثها الغزو الثقافي في بلادنا.. لحساب الصليبية الغازية.. فالاستعمار أحقاد دينية وأطماع دنيوية، ولم تعرف الدنيا أناسًا أقدر على إخفاء أحط النيات وراء معسول الكلمات، كما عرفت ذلك في تجار الاستعمار الحديث.

ويؤكد الغزالي أن مستقبل أمتنا لن يضيء إلا إذا نجا من حقد الحاقدين، وطمع الطامعين.

من عناوين الكتاب: كيف يفتكون بنا؟ تهويد وتنصير، القتل أو الاستغلال، سلام مسلح، حول قيام إسرائيل، أمريكا الصليبية، الحياد.. كما نفهمه.

١٨ - نظرات في القرآن:

يقع الكتاب في (٢٥٤) صفحة، الطبعة السادسة، دار الكتب الإسلامية بالقاهرة (١٩٨٦م)، وهو الكتاب الثامن عشر في ترتيب مؤلفات الغزالي، وفيه جملة معارف حسنة عن القرآن المجيد، تضمنت ثمرات من غراس الأئمة الأقدمين والعلماء المحدثين، وشدها جميعًا نظام يوائم الأسلوب الذي استحلاه المثقفون اليوم وألفوه في مجالي العلم والأدب.

ويمس الكتاب قضايا دينية واجتماعية تشغل بال المسلمين خاصة، وبال العالم عامة، فإن العلم المعزول عن الواقع لا سبيل له في كتب الغزالي ولا في لبه، والقرآن نفسه كتاب لا يستطاع عزله عن الحياة أبدًا، فما نزل إلا ليخطِّئ أو يصوب من أفكارها، وإلا ليمحو أو يثبت من أحوالها.

ومن عناوين الكتاب: هذا القرآن: كيف نزل؟ ولماذا خالد؟ وكيف جُمع؟ نماذج وصور في القرآن: الإنسان، الحياة، الثروة، والألوهية، والنبوة، والقصص. الإعجاز القرآني: النفسي والعلمي والبياني، القرآن وأهل الكتاب، ودراسة حول النسخ.

١٩ - مع الله: دراسات في الدعوة والدعاة:

الطبعة الأولى لدار القلم بدمشق (١٩٨٩م)، هذا الكتاب للدعاة وليس للعامة، ألفه الشيخ الغزالي لهم، ودرس جملة من أبوابه معهم، حين كلفته مشيخة الأزهر بأن يحاضر لطلبة

الدعوة والإرشاد، ويتضمن عددًا من الفصول في كل منها مباحث عديدة.

ومن عناوين فصوله: التعريف بالدعوة، السنن العامة في دعوة الرسل إلى الدين، حملة الدعوة، وسائل الدعوة، مقاومة الهدامين، نماذج حية في وجوه الدعوة من القرآن والسنة، وأقوال الخلفاء الراشدين وعلماء الأمة.

٢٠ - معركة المصحف في العالم الإسلامي:

يقع الكتاب في (٣٥٧) صفحة، الطبعة الثانية، من منشورات دار الكتب الحديثة، وهذا الكتاب هو جهد رديف للجهود المبذولة للدفاع عن المصحف المهاجم وأمته المعناة في أنحاء الأرض، إنه كتاب لا يخص قطرًا إسلاميًا بعينه، بل إنه يتناول حاضر ومستقبل أمة عاث الاستعمار السياسي والثقافي في أرجائها فسادًا.

يرى المؤلف أن المسلمين يعتقدون أن ما بين دفتي المصحف هو مراد الله من عباده، وأنه يمثل قواعد الدين الواحد الذي جاء به جميع المرسلين، وهو الوحي الذي سيصحب الإنسانية حتى النهاية، وأن المصحف صورة تامة للحق في العقيدة والعبادة والخلق والمعاملة تكفل للأمم معاشها هنا ومعادها هناك، ومقالات هذا الكتاب استهدفت مناهضة الاحتلال الأجنبي بجميع أشكاله عن طريق ثورة الشعوب، وخلق الأمل في النجاح، وتأسيس الحياة الاجتماعية والسياسية على أصول الإسلام.

ومن أهم عناوينه: المصحف للنفس والمجتمع والدولة، العبادات وسلطان الدولة، الإسلام يصبغ الحياة العامة في أغلب تاريخه، حراسة الحق بمعيار الإيمان، التجديد الإسلامي في ميدان السياسة، هذا الاستعمار الثقافي، حول مركز المرأة في المجتمع.

٢١- كفاح الدين:

يقع في (٣١٢) صفحة، الطبعة الخامسة، مكتبة وهبة (١٩٩١م)، أظهر المؤلف في الكتاب ما يقع للإسلام وأهله من أذى، حيث تنجح سياسة الاستعمار في إقامة حكومات موالية لها، وتتبع آثار الاستعمار في البلاد التي أكره على الرحيل منها، وكيف أنه طوى بساطه من بعض الأراضي وبقي ممدود الرواق في نفوس لا يزال يحتلها، ويلقي حبائله فيها، وذكر أمثلة عديدة على ذلك ونماذج متنوعة.

تحدث المؤلف في مقدمة الكتاب عن شعوره بأن الأمة قد وصلت إلى مرحلة عظيمة نحو التخلص من الاستعمار، وأن يقظة العروبة وآمالها وحقوقها أصبحت حركة ناجحة، وناقش الجوانب الإسلامية في مفهوم القومية العربية والحياد الإيجابي اللذين كان يتحدث عنهما الرئيس جمال عبد الناصر، بما يكشف عن سعادة الشيخ الغزالي بهذه الشعارات وامتداداتها، لكنه حذر في هجوم قوي الرؤوس الفارغة من الدين، التي تجعل من هذه الكلمات غطاء لما رسب فيها من بقايا الاستعمار، ويؤكد أن

هذه الشعارات لا يمكن أن تغلب الطابع الأجنبي، أو تهون من الروح الديني، أو تضعف الأدب العربي، أو تشوه التاريخ الإسلامي، وتسوغ الانحلال الأخلاقي؛ لأن ذلك يعد خروجًا عن الدستور، وتعويقًا لثورة البلاد.

ويبدو أن تلك القوى المعادية التي أفرغت الشعارات من مضمونها الإسلامي هي التي قادت مصر في عهد جمال عبد الناصر إلى ما انتهت إليه مصر من التمكين للفاسدين المفسدين، الذين قادوا مصر إلى الردة، فكتب الغزالي في مقدمة كتاب (قذائف الحق)، يؤكد أن جمال عبد الناصر كان أداة رائعة في يد القوى العالمية الحاقدة على الله، وخاتم رسله، وأنه فعل بمصر أضعاف ما فعله كرومر.

ومن عناوينه: التعاون بين الإسلام والمسيحية، اتجاه الصليبية الحديثة ثقافة مهجورة، في عالم الملذات.

٢٢- الإسلام والطاقات المعطلة:

يقع في (٢١٤) صفحة، الطبعة الرابعة، من منشورات دار الكتب الإسلامية بالقاهرة (١٩٨٣م). في الكتاب مقارنة بين طبيعة دين، وواقع أمة، اعتمد فيها المؤلف على المعروف من مبادئ الإسلام، والمألوف من حياة المنتمين إليه، ويلمس القارئ بُعْدَ الشُّقَّة، ويرى أسباب التفاوت.

ويؤكد المؤلف أن أمتنا تنتشر فوق بساط من الأرض الطيبة، التقت فوقها مقاليد الدنيا ومفاتيح العمران، وفي قبضة يدها

رخاء العالم، ولو أحسنت استغلال ما تملك، لما احتاجت إلى أحد، ولاحتاجت سائر الأمم إليها. فإن شرايين الحياة الاقتصادية للقارات تبدأ منها وتنتهي إليها.

كل ذلك إضافة إلى الغنى الأدبي الذي تملكه هذه الأمة بما تحمله من رسالة الإسلام، ثم يشرح المؤلف لماذا جمدت الأمة وكيف تنطلق وما قيمة مواريثها الروحية والفكرية.

من أهم عناوينه: تفجير الطاقة الإنسانية، فساد عاطفة الدين، الكفر بالإنسان، الاستبداد يشل القوى، أثر الثقافات الرديئة، المرأة في المجتمع الإسلامي، الإسلام أساس حياتنا وسر قوتنا، دين المستقبل، البيان الإسلامي العالمي، أزمات الحضارة المعاصرة، التضامن الإسلامي، أُطر النظام الإسلامي، تحرير الأراضي الإسلامية.

٢٣- حقوق الإنسان بين تعاليم الإسلام وإعلان الأمم المتحدة:

طبعة دار الدعوة (١٩٩٣م) في (٢٦٦) صفحة، يتناول هذا الكتاب - الذي كتب في الستينات - مبادئ حقوق الإنسان: الحرية، المساواة، العدالة، الكرامة، وبيّن الكتاب أن الإسلام دعا الناس - كل الناس - للحياة الكريمة دون تمييز بين جنس أو مال أو لون أو جاه، فقد سوى الإسلام بين العربي وغير العربي حاكمًا أو محكومًا، وبين الكتاب أن الدول الكبرى لا تلتزم حقوق الإنسان كمكيال ثابت، لكن الإسلام التزم جانب العدالة المطلقة يوم دانت له الأرض، وأن آخر ما وصلت إليه

الإنسانية من قواعد وضمانات لكرامة الجنس البشري كان من أبجديات الإسلام، وأن إعلان حقوق الإنسان هو ترديد عادي للوصايا النبيلة التي تعلمناها من رسول الإنسانية محمد ﷺ.

من أبرز عناوينه: المساواة العادلة، الحقوق القضائية، الحريات، الرجل والمرأة في المجتمع، كيان الأسرة، الهجرة واللجوء، الكرامة الاقتصادية، المستوى الثقافي، الإعلان العالمي لحقوق الإنسان وحقوق الإنسان في الإسلام.

٢٤- هذا ديننا:

يقع الكتاب في (٢١٣) صفحة، وهو طبعة مطبعة حسان الثالثة عام (١٩٧٥م)، يأتي الكتاب جامعًا لتعاليم الإسلام مع اتسامه بالإيجاز والوضوح والاستيعاب، وقد أثبت المؤلف في كتابه هذا خلاصات واضحة ومضيئة لما سبق أن تناوله عن حقائق الإسلام مع إضافة دلائل جديدة، كما ضم أبوابًا أخرى من البحث والدراسة، تعين على تحقيق رغبة الكاتب في تقديم صورة وسيمة الملامح لهذا الدين العظيم.

وأما أبرز عناوين الكتاب: العقائد: التوحيد، القضاء والقدر، حرية العقل لا حرية الشهوة، حرية الاعتقاد، ضروب العبادات وصورها، الأسرة، الأخوة، الاجتهاد، الإجماع، فقه العبادات، شرائع المعاملات.

٢٥- الخديعة: حقيقة القومية العربية وأسطورة البعث العربي:

يقع هذا الكتاب في (٢٨٣) صفحة، من منشورات: دار الروضة للنشر والتوزيع، عام (١٩٩٣م)، من حق أي مسلم مخلص أن ينفر من التدليس، وأن يَعُدّ القومية العربية بهذا التفسير الجديد حركة النفاق ماكرة خبيثة للقضاء على شخصية الإسلام وتاريخه، والمحاولات ناشطة للإجهاز على الإسلام، تارة بتسويغ الارتداد عنه عقيدة وشريعة، وتارة بإحلال العروبة مكانه بعد تحريرها من رابطة الإيمان، لتكون مفهومًا ميتًا، ثم افتعال يقظة عربية، وتفسير القومية العربية على هذا الأساس يعد استجابة صريحة للغزو الاستعماري بكل ما يحمله من أحقاد وأطماع.

وإذا كان حديث الغزالي عن العروبة بهذه الحدة في هذا الكتاب، فذلك لأن العروبة التي عرفناها من قديم، وآزرنا نهضتها يوم قامت، واستبشرنا بجامعتها يوم ولدت، شيء آخر عن العروبة التي نسمع الآن لفظها من بعض الساسة والكُتّاب، فنسمع له رنينًا كرنين النقد المزيف، والمؤلف في الوقت الذي يعبر عن جزعه من هذا الانحراف يلفت النظر إلى خطورة الفوضى الفكرية والاجتماعية، التي أحدثها البعثيون والقوميون بهذا المسلك، الذي كان جسرًا عبر عليه الاستعمار ليعيث فسادًا في أرجاء حياتنا كلها.

ويتناول الكتاب: خصائص العروبة، ودعائم المجتمع، وعصور الازدهار، وعصور الانهيار، وقضية البعث العربي، وقضية الشعوبية في العصر الجديد الحديث.

٢٦- الجانب العاطفي من الإسلام:

بحث في الخلق والسلوك والتصوف، يقع الكتاب في (٢٩٩) صفحة، طبعة دار الدعوة، الطبعة الأولى (١٩٩٠م)، هذا الكتاب إحياء لجانب مهم من مواريثنا العلمية الثمينة تفتقر له الحياة المعاصرة، وهو الجانب العاطفي والنفسي والخلقي وتكامله مع الجانب العلمي والفكري، وهو محاولة لإخراج التصوف من صومعته؛ ليكون طاقة محركة، ويلفت المؤلف النظر إلى أن هذا الجانب – على جلالته – مغموط الحق، لم يلق العناية الدقيقة التي لقيتها الجوانب الأخرى، وميدان التربية الإسلامية في هذا العصر أحوج ما يكون إلى هذه الدراسات؛ فالتعاليم المادية تزحف من كل فج، وتقتحم طريقها إلى النفوس من مسارب لا حصر لها، وإذا لم نحسن البناء الداخلي للنفوس، ورفع الإيمان على دعائمه الفكرية والعاطفية كلها، فإن الأجيال الناشئة لن تنجو من آثار هذا الزحف.

ومن عناوين الكتاب: في باب الإسلام والإيمان والإحسان: الإلحاد خرافة علمية، قوانين الإحسان وأخطاره، وفي باب دعائم الكمال النفسي: إشارات الطريق: التوبة، الورع، الخوف، الرجاء، الحب.

٢٧- دفاع عن العقيدة والشريعة ضد مطاعن المستشرقين:

يقع في (٢٥٩) صفحة، الطبعة الخامسة، لدار الكتب الإسلامية، عام (١٩٨٨م)، الكتاب مناقشة حرة للمستشرق المجري جولد تسيهر في كتابه (العقيدة والشريعة) الممتلئ بالأحقاد والضغائن ضد الإسلام، وهذا المستشرق مكث بضع عشرة سنة يقرأ ويتعمق ويحيط بمفاهيم الإسلام، حتى أخرج كتابه بعنوان (العقيدة والشريعة في الإسلام)، وقد افترى هذا المستشرق - باسم التحقيق التاريخي - على الإسلام افتراء لا حد له، وأحصى عشرات الشبهات ونظمها في سلك واحد باسم التطور العقدي والتشريعي.

وأعمال المستشرقين يصعب أن تخلو من العيوب؛ فذلك يتنافى مع وظيفة الاستشراق، الذي يمهد للاستعمار، كما تمهد الدبابات الطريق أمام زحف المشاة. وقد كشف الغزالي أن كتاب هذا المستشرق من شر ما كتب عن الإسلام، وأسوأ ما وجه إليه من طعنات، وقد كان رد الغزالي على هذا الكتاب مناسبة لاستيفاء الحقائق العلمية والتاريخية، التي يزخر بها تراث أمتنا.

من عناوينه الرئيسية: محمد رسول الله: الانقياد لله طبيعة الأديان كلها، لا تفاوت بين الإسلام في مكة والمدينة، الهجوم على السنة، تطور الفقه الإسلامي: عموم الرسالة وخلودها، بين الشريعة والقانون الروماني، التطور في العقيدة: معنى المتشابه في

القرآن، الزهد والتصوف: الإسلام يخدم الروح والجسد، الفرق: طبيعة الخلافات بين المسلمين، وراثة الخلافات حماقة، حول الوحدة الإسلامية، المسلمون.. بين الاستعمار والصهيونية.

٢٨- ركائز الإيمان بين العقل والقلب:

طبعة دار الاعتصام (١٩٧٣م) في (٢٨٨) صفحة، وضع المؤلف هذا الكتاب لخدمة الثقافة الإسلامية مستهدفًا أمرين، أولهما: إثارة العقل والضمير بأشعة الوحي ومعالم النبوة، متحريًا الحق جهده، وملتقطًا الحكمة حيثما وجدها، وماحيًا الشبهة في صمت ما استطاع، وثانيهما: تبديد الغيوم التي تراكمت خلال قرون الضعف في تاريخنا، وتوقيف القراء على خبيئها، حتى لا يضطربوا إذا عرضت لهم يومًا، والكتاب استكمال لما كان قد وضعه المؤلف في كتابه « الجانب العاطفي في الإسلام ».

ومن عناوينه: التفاوت بين التقدم الروحي والتقدم العقلي، العلم ظهير الإيمان، الإيمان بالغيب ليس إيمانًا بالوهم ولا إيذانًا بالفوضى، صدق المعرفة ووحدة الوجود، وحدة الوجود خرافة، ثقافتنا التقليدية تحتاج إلى مراجعة، فن العزلة والاختلاط، نبوة وكتاب وأمة وارثة.

٢٩- حصاد الغرور:

يقع في (٢٠٧) صفحات، طبعة المختار الإسلامي، الثانية، عام (١٩٧٩م)، الكتاب رصد لأحوال الأمة العربية قبل

الهزيمة أمام اليهود عام (١٩٦٧م) وبعدها، واستشعار لمدى قربها أو بعدها من دينها، ومدى قدرة التيارات الأجنبية على التطويح بها، ورد على التوجيهات الزائفة والتعليقات المنحرفة.

ويؤكد المؤلف أن العراك بيننا وبين بني إسرائيل سوف يمتد سنين عددًا، فإذا أحببنا أن نذوق حلاوة النصر؛ فالطريق إليه بينة، أما إذا كررنا أخطاءنا القديمة، وأساليبنا القديمة، فلن نحصد إلا ثمرات الغرور، وما أبشع مذاقها وأمره!! ويظهر المؤلف قلقه وخشيته على الإسلام نتيجة لموقف العرب من هذا الدين؛ فهم يريدون أن يدخلوا في معركة دينية بغير دين! ومع أن مطارق الهزيمة التي وقعت على أم رأسهم كانت كفيلة بإزالة هذا الوهم، إلا أن عملاء الشيطان يستميتون في مكافحة هذه اليقظة، والحيلولة دون اعتناق العرب للإسلام، كلٌّ لا يتجزأ.

ومن أهم عناوينه: صراع بين رسالتين، يهودية وصهيونية، من أين تهب رياح التغيير، هل عن الإسلام غنى؟ متى تنتهي هذه الأحقاد؟ جذور المعركة القائمة، (القيم الروحية) كلمة غامضة مبهمة، أجيال النصر وأجيال الهزيمة، بواعث الحقد على لغتنا، تفتيت الحقيقة بداية التحول عنها، تزوير التاريخ، مستقبل العلاقات بين الدين والمتدينين، إسلام واحد وإن اختلف الفقهاء.

٣٠- الإسلام في وجه الزحف الأحمر:

يقع في (٢٠٦) صفحات، صدر عن مكتبة الأمل « بدون تاريخ »، كتب الغزالي كتابه هذا في ظروف صعبة شديدة، حيث

كان عدد من الحكومات العربية قد تبنت الشيوعية وتحالفت مع الاتحاد السوفيتي، ويقول في مقدمته: « إنني كتبت هذه الصحائف بالحقائق العلمية والتاريخية، وأوراقها صرخات قلب غيور على دينه شفيق على أمته، وأعرف أنني بكتابتها سأتعرض لعداوات مميتة، ولكن بئست الحياة أن نبقى ويفنى الإسلام »، وفي حوار شفهي قال عن الكتاب: « كم نصحني من الزملاء والمحبين أن أصرف النظر عن كتابة « الإسلام والزحف الأحمر ». بئست حياة أدفن فيها في جلدي، ويتطلع الظالمون صائلين. الموت في هذه الحال أشرف وأجل.. »

ومن عناوينه: بداية الصراع، الشيوعية والدين، الشيوعية والحريات، الأحوال الاقتصادية في ظل الشيوعية، المسلمون في الاتحاد السوفيتي، الإسلام بين الحياة والموت، فلسطين والشيوعية وواجبنا العام.

٣١- قذائف الحق:

يقع في (٢٤٢) صفحة، من منشورات المكتبة العصرية بصيدا - لبنان - (بدون تاريخ)، لكن المؤلف أعد مقدمة الكتاب وهو في الرباط عاصمة المغرب، يستمع إلى أخبار القتال بين العرب واليهود عام (١٩٦٧م).

إن المؤامرة على الإسلام وأمته الغافلة قد أخذت أبعادًا جديدة مخوفة، وإن المصارحة هنا أجدى في رد الخطر، وقتل بوادر الشر قبل أن تستفحل، ويرى المؤلف أن قوى الإسلام قد

وهنت، وأمسى الإلحاد ذكاة والإيمان غباء، أما كهان اليهودية والنصرانية فمكانتهم لا تمس.. وكما استعان الاستعمار العالمي بالكنائس الغربية على إذلال الإسلام من قبل فإنه يوسع دائرته ليشرك الكنيسة الشرقية في ذلك، ويعد الغزالي بأنه في هذا الكتاب يلتزم جانب الدفاع، ومستعد لوقف المعركة إذا توقف المعتدون.

من أهم ما جاء فيه: العقل أولًا.. ثم ننظر فيما يقال، العهد القديم وافتراءاته على المرسلين، تحرك ضد عقيدة التوحيد، ماذا يريد الأقباط؟ الإسلام وجماعة الإخوان، صفحات من مذكرات معتقل، الحقائق تدلكم، نحن نريد الحفاظ على وحدة مصر الوطنية، القومية العربية ومعناها، حديث الذباب، الدعوة الإسلامية وسياسة بعض الحكام، العقيد الناصري، سياسة الحكم والمال في الإسلام، العرب بدون الإسلام صفر، لا دين حيث لا حرية، محنة الضمير الديني هناك.

٣٢- الدعوة الإسلامية تستقبل قرنها الخامس عشر:

يقع في (٢١٠) صفحات، طبعة مكتبة وهبة، الثالثة، عام (١٩٩٠م)، ألف الغزالي هذا الكتاب استجابة لطلب جامعة الإمام محمد بن سعود في الرياض، بمناسبة انتهاء القرن الهجري الرابع عشر، وقد ضمنه وصف العلل التي تكتنف الدعوة والدعاة في شتى الأقطار والأمصار، ويتهيأ الشيخ الغزالي في هذا الكتاب لاستقبال القرن الخامس عشر بإلقاء نظرة على مسيرة

الدعوة الإسلامية خلال ذلك الماضي الطويل؛ لنحاكم أنفسنا إلى مبادئها الثابتة، ولنعرف ما لنا وما علينا بدقة، كما قدم فيه وصفًا لشُعَبِ الهجوم المعاصر على الإسلام، والطريقة المثلى لمواجهته في شتى الميادين.

ومن أهم عناوينه: شبهة مردودة، الدعوة وأحوال الدولة الداخلية، الأتراك والعرب والدعوة الإسلامية، أسباب انهيار الحضارة الإسلامية، ذبول الأدب العربي، الفساد السياسي، أبعاد الهزيمة الإسلامية، كيف تصدى الدعاة لهذه الغارة؟ ولاؤنا لمن؟ الأبعاد الجديدة: بعدما صعدوا هبطنا.

٣٣- فن الذكر والدعاء عند خاتم الأنبياء:

يقع في (١٧٩) صفحة، من منشورات المكتبة العصرية - بيروت الطبعة الثانية (١٩٨٠م) في هذا الكتاب سياحة محدودة في جانب شريف من جوانب السيرة، هو جانب الذكر والدعاء، فمن يقف بين يدي النبي الخاتم ﷺ - وهو يدعو ربه - يشعر أنه أمام فن في الدعاء، ذاهب في الطول والعرض لم يؤثر عن مثله من المصطفين الأخيار، وهذه حقيقة علمية رأى المؤلف أن يثبتها في هذا الكتاب.

ومن أهم عناوينه: كيف عرَّفنا محمد بالله؟ الحب أساسه والشوق مركبه (يصف فيه قوة العاطفة ودفقها في مناجاته عليه الصلاة والسلام)، أربع وعشرون ساعة من حياة عريضة (يتأمل فيها صورة يوم واحد من حياة نبي الإسلام)، أرق

الدعوات بعد الطعام والشراب، مجالس التبوة، ليل أبيض (يصف فيه عبادة الليل)، في خضم الحياة (دعوات تتناول شؤون الحياة المختلفة)، بناء البيت المسلم، معركة الخبز (دور الذكر عندما تضطرب أحوال العيش)، في السفر والعودة متاعب الدنيا، هل الدعاء من الأسباب العادية؟ الأركان العامة (أركان الإسلام وأدعيته ﷺ فيها)، ذكر وتذكير، نبي الرحمة ونبي الملحمة.

٣٤- دستور الوحدة الثقافية بين المسلمين:

يقع في (٢٣٩) صفحة، طبعة دار القلم، الأولى، عام (١٩٨٧م)، ملهم هذا الكتاب وصاحب موضوعه الأستاذ الإمام حسن البنا، الذي يصفه الغزالي بأنه مجدد القرن الرابع عشر الهجري؛ فقد وضع جملة مبادئ تجمع الشمل وتوضح الهدف، وهذا العمل هو تأصيل لتلك المبادئ، وشرحها على ضوء تجارب المؤلف المستفادة خلال أربعين عامًا في ميدان الدعوة، حيث إن الظروف التي بدأ فيها حسن البنا دعوته ما تزال قائمة مع خلاف طفيف حينًا وكثيف حينًا آخر.

وإذا كانت الأصول العشرون للإمام البنا هي المبادئ التي خاطب بها الجماعات الدينية في مصر على عهده، من أجل التأليف والتقريب بينها، فكانت مصوغة صياغة وسطية حكيمة، فإن الغزالي في هذا الكتاب قد أضاف إلى هذه المبادئ عشرة مبادئ أخرى، تختص بجوانب حياة المجتمع الإسلامي في داخله وفي

علاقاته بغيره من المجتمعات، وتتعلق هذه المبادئ بوضع المرأة، وطبيعة الأسرة، وحقوق الإنسان، ووظيفة الحكام، وأساس الحكم، وطبيعة الملكية، ووظيفة الدعوة الإسلامية، والعلاقة بغير المسلمين، والمواثيق الدولية، والتعاون الدولي ودور المسلمين فيه.

من أهم عناوين الكتاب: هيمنة الإسلام على الحياة كلها، الكتاب والسنة معًا، بين النص والمصلحة، أخبار الآحاد ووزنها العلمي، الاجتهاد الفقهي علامة صحة، التعصب المذهبي، نحو سلفية واعية، الخلافات الموروثة: قيمتها وأثرها، التوسل: ما يجوز منه وما لا يجوز، الانحرافات النفسية والبدنية، الحب والبغض في الله.

٣٥- واقع العالم الإسلامي في مطالع القرن الخامس عشر:

يقع هذا الكتاب في (٨٠) صفحة، صدر في القاهرة عن دار ثابت، عام (١٩٨٤م)، يتناول الكتاب قضية المؤامرات التي تدبر لهذا الدين ولأتباعه، والجهود التي تبذل لصرف المسلمين عن دينهم وتراثهم وعقيدتهم، حتى يزول ويتلاشى، ويتحدث عن واقع العالم الإسلامي وانهياره أمام هذه القوى والمؤامرات، ويشير بوجه خاص إلى قضايا الاستبداد السياسي والفساد الإداري، وامتهان حرية الرأي، وحقوق الإنسان المهدورة في واقعنا الإسلامي، والفرق الكبير بين تعاليم الإسلام وأحوال المسلمين.

٣٦- مشكلات في طريق الحياة الإسلامية:

يقع في (١٤٣) صفحة، صدر عن دار نهضة مصر للطباعة والنشر، عام (١٩٩٦م) (الطبعة الأولى)، وهو متابعة للنشاط الإسلامي المعاصر، ودراسة شاملة لأسباب تقهقر المسلمين المدني والعسكري، والعناصر الحيوية التي فقدوها حتى دهاهم ما دهاهم، وفي الكتاب نماذج لقضايا خاضها أو سيخوضها العاملون في الحقل الإسلامي.

ومن عناوينه الرئيسية: صور جديدة وعديدة للأعمال الصالحة، في الثقافة والتربية والأخلاق، كلام في الإسلام، محنة اللغة العربية والأخطار التي تكتنفها، بين الاعتدال والتطرف، المتاجرة بالخلاف خيانة عظيمة، فقه الدعوة الإسلامية ومشكلة الدعاة.

٣٧- هموم داعية:

يقع الكتاب في (١٧٣) صفحة، من منشورات: دار البشير، القاهرة، الطبعة الثانية (١٩٨٥م)، في الكتاب نماذج محدودة لمثار الشكوى ومصدر هموم الداعية، حيث إن الثقافة الإسلامية المعروضة تحتاج إلى تنقية شاملة، والدعاة والعاملين في الميدان التقليدي يجب أن يغربلوا لينعدم السقط، ويبقى الغلث.

ومن أبرز عناوين الكتاب: السلفية التي نعرف ونحب، لا سنة من غير فقه، هم بنو إسرائيل فمن نحن؟ أحوالنا العامة قبل الهزائم التاريخية الكبرى، عدوان من البشر أم عقاب من القدر، عوائق مزعومة أمام الإسلام، أين الإسلام في هذا الركام؟

مستقبلنا رهن بوفائنا لديننا، حقائق خفية وراء حرب تعيسة، على مسار الدعوة.

٣٨- مائة سؤال عن الإسلام:

يقع هذا الكتاب في مجلدين، وهو من منشورات دار ثابت للنشر والتوزيع، عام (١٩٨٤م)، ويتضمن هذا الكتاب مائة سؤال في نواحي الإسلام المختلفة، حيث يقوم الشيخ الغزالي بالرد عليها، وكلها من أهم الموضوعات التي تدور حولها استفسارات المسلمين.

ومن الموضوعات التي وردت الاستفسارات عنها: الإجماع في الإسلام، والمعالم الأولى للدولة الإسلامية ومتى تقام الحدود؟ وهل هي صالحة لكل عصر؟ وهل ينبغي في عصر تفجير الذرة وغزو الفضاء أن نقدم الولاء للإنسانية ونؤخر الولاء للدين؟ وما حقيقة الملائكة والجن؟ وما علاقتهما بالإنسان، وما العلاقة بين الإسراء وبني إسرائيل؟ وهل توجد صحوة إسلامية معاصرة؟ وما أبعادها؟ وما موقف الإسلام من الحضارة المعاصرة؟ وهل يمكن القول بأن للإسلام حضارة خاصة يدعو لها؟ وما هي نظم الحكم في الإسلام؟ وما موقف الإسلام من تحديد النسل؟ وما حكم النقاب في الإسلام؟

٣٩- علل وأدوية:

يقع في (٢٨٣) صفحة، الطبعة الأولى من منشورات دار الدعوة بالقاهرة، عام (١٩٩١م)، يتناول دراسات في أمراض أمتنا ووسائل الاستشفاء منها مع تصحيح لما وجه إلى التاريخ الإسلامي من أخطاء.

ومن أهم عناوينه: الإنسان في القرآن، كيف غير الإسلام مسار العالم؟ أولو الألباب في كتاب الله، وجهة نظر في أقدار الرجال: مالك، محمد عبده، جمال الدين الأفغاني، مدرسة رائدة وإمام ضخم، عندما يكون الإلحاد أذكى، الإسلام وحده يجب أن يعد، ضرورة هتك الأسرار، شائعات في ميدان العلم، المعالم الأولى في عظمة محمد ﷺ، رحلة من العلم إلى الإيمان، التعليم الأصلي، أسرار وراء تخلفنا، وظيفتنا العالمية، الثقافة الإسلامية في محنة، الأمانة في نقل التراث.

٤٠- مستقبل الإسلام خارج أرضه. كيف نفكر فيه؟

يقع الكتاب في (٢٠٢) صفحة، نشر دار الشروق، الطبعة الأولى (١٩٨٤م)، يحاول الكتاب أن يجيب عن أسئلة مهمة مثل: هل أدى المسلمون رسالتهم في إبلاغ الإسلام ونفع الناس به؟ وهل تقوم الدعوة الإسلامية على سياسة مرسومة وأجهزة منظمة وجهود منسقة، ودراسة لأحوال الأمم التي ندعوها؟ وهل نحسن عرض أنفسنا على الآخرين؟ أم أننا نظلم الرسالة الخاتمة بسوء العرض حيناً، وبسوء الفهم حيناً آخر؟

من عناوين الكتاب: غربلة المعارف قبل تقديمها إلى الناس، شخصية المسلم المعاصر، هل تفيد الدعوة؟ لكي تنجح دعايتنا، أهل القرآن وأهل الحديث.

٤١ - قصة حياة:

مخطوطة بخط اليد: يتحدث الكتاب عن حياة الشيخ محمد الغزالي، ويحكي لنا الغزالي كيف برز إلى الدنيا في كبوة من تاريخ الإسلام وفي أيام كئيبة، كان الإنجليز فيها يحتلون مصر وأقطارًا أخرى فيحاء من أرض الإسلام الجريح، وكيف كان القرن الذي ولد فيه من أسوأ القرون التي مرت بديننا الحنيف، فلم يبلغ سبع سنين حتى كان المرتد التركي مصطفى كمال قد رضى « الخلافة الإسلامية »، فأصبحت شبحًا لا روح له.

ثم يتكلم المؤلف عن تعليمه الديني والمدني، وعن الاضطرابات السياسية التي عاصرها، حيث يتحدث عن تعطيل الدستور على يد محمد محمود باشا.

ثم إلغاء الدستور على يد إسماعيل صدقي باشا عندما تولى الحكم، ثم الإتيان بدستور جديد.

ومن عناوين الكتاب: ذكريات الطفولة، تعليمه الديني والمدني، من السجن إلى المعتقل، الانتفاع بالحريات الديمقراطية، الأصول السياسية، جماعة الإخوان المسلمين.

٤٢- سر تأخر العرب والمسلمين:

طبعة دار الريان للتراث (١٩٨٧م) في (١٨٧) صفحة، لاحظ المؤلف أن مشكلات الدعوة الإسلامية تتكرر في مشرق العالم الإسلامي ومغربه، فأزمة الدعاة الواعين شديدة، وأهل الذكر الجامعون بين القراءة والفقه قلة نادرة، والمسلمون الحريصون يسيئون أحيانًا إلى أنفسهم وأهليهم.. لأنهم يدركون الأمور على غير وجهها، أو تملكهم العاطفة المنفصلة عن التعقل، فتضر ولا تنفع.

والكتاب محاولة لاستجلاء الأسباب الكامنة وراء تخلف المسلمين وتراجعهم.

ومن عناوين الكتاب: أين الخلل؟ بعض سنن الله الكونية من القرآن، أثر الأهواء والعصبيات على الدعوة الإسلامية، التعلم المغشوش، حد أدنى لثقافة المسلم، مرتبة أخرى من المعرفة الدينية، جيل يذهب ضحية العجز والغدر، أحوال اليوم وآمال الغد، الوحدة الإسلامية طريق طويل لكنه ضرورة حياة.

٤٣- الطريق من هنا:

يقع الكتاب في (١٦٠) صفحة، وهو من منشورات دار الشروق، الطبعة الثالثة (١٩٩٢م)، في هذا الكتاب صور متنوعة لمفارقات بين واقعنا وديننا في الماضي والحاضر، يدعو الشيخ إلى أن تجد حظها من التدبر والوعي، فإن المستقبل - كما يقول - منوط بهذه اليقظة.

ومن أهم العناوين فيه: دعوات تائهة في أمة مهددة بالضياع، لماذا جفت ينابيع هذا العلم؟ قضية الأخلاق عندنا في عالم المرويات، أمة المجد يجب أن تؤدي رسالتها، أما لهذا الحقد من حد؟! حملة صليبية على الإعجاز العلمي للقرآن الكريم، الحكم الإسلامي لا ينطلق من فراغ، الأبعاد الإنسانية لخطاب الرسول في حجة الوداع.

٤٤ - جهاد الدعوة بين عجز الداخل وكيد الخارج:

يقع في (١٩٢) صفحة، صدر عن دار الصحوة (بدون تاريخ)، مجمل الكتاب أن الجهاد الإسلامي هو دفاع عن الأرض والعرض، والحاضر والمستقبل، والتاريخ والشخصية، والدين والدنيا، ولا يقتصر الإسلام على الطبيعة العسكرية؛ فالانتصار لله ورسوله يكون في ميدان الإعلام، وفي ميدان المال والعلم، مدنيًا كان أو عسكريًا، وفي ميدان السياحة والكشوف، وفي ميدان المساعدات والخدمات الاجتماعية.

ومن أهم عناوينه: واقع لا تتجاوزه، أوهام سيئة، تأويلات الجاهلين، ما يسمونه آية السيف، الإسلام هو الأساس الشرعي للحكم في أي بلد إسلامي، الجيش الذي لا يقهر أكذوبة لها تاريخ.

٤٥ - الحق المر:

صدرت للمؤلف بهذا العنوان خمسة أجزاء عن دور نشر مختلفة وبطبعات عديدة، وهي حصاد ثمرات قلم الشيخ الغزالي،

ومع أنها كلمات قصيرة، لكنها فواتح لمعانٍ جمة عند أولي الغيرة على دينهم وأمتهم.. تغوص في واقعنا الحي لتشد أزر المجاهدين في سبيل الله، وتحق الحق وتبطل الباطل، وستظل هذه الكلمات وميضًا يبرق بالإيمان، ويحامي عن الحق، وهذه السلسلة من الكتب مجموعات من مقالات قصيرة ذات موضوعات شتى تستمد سطورها من الواقع وما يستجد على الساحة من قضايا، وتستهدف إثارة الوعي الكامن في أفئدة المؤمنين، وحسبها أن تكون كضوء البرق الذي يكشف الظلام ويوضح الطريق، وما أكثر الأخطاء التي تستقر بين الناس؛ لأنها لم تجد من يصححها، إن الجهل بالحقيقة له دخل كبير في صياغتها، عندما ينطلق الخطأ داخل قذيفة، فلن تجدي في مقاومته إلا قذيفة مثله، ولا بد أن يكون للدعوة الإسلامية جهاز واحد يقظ، يكشف كل شبهة ويرسل الرد السريع على كل تساؤل مريب، فلا يدع فرصة لتلبيس أو فرية.

٤٦- الغزو الثقافي يمتد في فراغنا:

يقع هذا الكتاب في (٤٢٤) صفحة، الطبعة الثالثة لدار الشروق، عام (١٩٨٥م)، وينطلق الكتاب من فرضية أن هنالك فراغًا حقيقيًا في النفس الإسلامية المعاصرة؛ لأن تصورها للإسلام خضرلي وسطحي، يستقي من عهود الاضمحلال العقلي في تاريخنا، وكأن بينه وبين عهود الازدهار ترة، ويصرح المؤلف أنه - ومن منطلق إسلامي - يرفض التبعية النفسية للآخرين، وكذلك

يرفض ما ينسب للإسلام من تصورات وهي ليست منه، والكتاب يصارح المسلمين بما هم عليه من قصور في الفهم يسهم في تسهيل الغزو الثقافي الخارجي.

ومن موضوعات الكتاب: الإسلام دين المفكرين، التحدي الثقافي، دين يكره الحضارة وحضارة تكره الدين، غزو مزدوج وأمة تافهة، أمة بوراثة أم وراثة أمة؟ نباتات سامة في حقول الإصلاح، متناقضات قاتلة.

٤٧- المحاور الخمسة للقرآن الكريم:

يقع في (٢٤٤) صفحة، طبعة دار الصحوة الثانية (١٩٨٩م)، يعالج الكتاب المحاور الخمسة التي أفاض القرآن بذكرها، وانتهى المؤلف إلى أنها أمهات لمسائل أخرى كثيرة تندرج تحتها، وهذه المحاور هي:

المحور الأول: الله الواحد، من عناوينه الفرعية: التوحيد، القدر والجبر، في القرآن الكريم تنقية للعقائد والسلوك.

المحور الثاني: الكون الدال على خالقه، من عناوينه الفرعية: الروحانية في الإسلام، ارتباط الذكر والدعاء بمشاهد الخليقة في الأرض والسماء، هل عزلة المؤمن هي الحل؟

المحور الثالث: القصص القرآني، من عناوينه الفرعية: أبعاد الإسلام النفسية والاجتماعية، التعصب للعرب، قصة العلم والحكم في تاريخنا.

المحور الرابع: البعث والجزاء، من عناوينه الفرعية: أحوال الناس يوم الحساب، طبيعة الجزاء الأُخروي، الأدلة الشاهدة على أن البعث حق.

المحور الخامس: ميدان التربية والتشريع، من عناوينه الفرعية: الحضارة المعاصرة نحيفة الخلق، الإحسان، الربا: خيانة وغدر.

٤٨- السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث:

يقع الكتاب في (١٦٠) صفحة، الطبعة الأولى لدار الشروق، عام (١٩٨٩م)، وهو من الكتب التي كلف الشيخ محمد الغزالي - رحمه الله - تأليفها من المعهد العالمي للفكر الإسلامي، وذلك إنصافًا للسنة النبوية، وذودًا عنها جرأة القاصرين وذوي العقول الكليلة.

وفي هذا الكتاب توجيه للذين يتناولون كتب الأحاديث النبوية، وهم يحسبون أنهم أحاطوا بالإسلام علمًا بعد قراءة عابرة أو عميقة، وفي الكتاب درس للذين يعرفون من الإسلام قشوره، ونسوا جذوره.

ولقد ساهم هذا الكتاب في إثارة النقاش حول مناهج فهم السنة النبوية، وكان له أثر حميم عند كثير من المسلمين والمسلمات الذين ردت إليهم حلاوة الإيمان وبرد اليقين، بعد أن انزاح عن كاهلهم الأفهام المغلوطة والأحكام الصارمة التي لا أساس لها من سند أو دليل.

ومن موضوعات الكتاب: في عالم النساء، الغناء، الدين بين العادات والعبادات، المس الشيطاني حقيقته وعلاجه، فقه الكتاب أولًا، أحاديث الفتن، وسائل وغايات، القدر والجبر.

٤٩- قضايا المرأة بين التقاليد الراكدة والوافدة:

يقع الكتاب في (٢١٨) صفحة، دار الشروق، الطبعة الخامسة (١٩٩٤م)، في هذا الكتاب خواطر منثورة جمعت بين العلم والأدب والنقد والتاريخ والفتوى الغابرة والمعاصرة، لكنها جميعًا تتصل بقضايا المرأة والأسرة والمجتمع الصغير.

من عناوين الكتاب: حشّوا صورة المرأة المسلمة، الدور الغائب للمرأة، المساواة ثابتة في القرآن، المرأة في الأدب والعلم، في باب مفاهيم يجب أن تصحح: العديد من المفاهيم المتعلقة بموضوع المرأة وليس لها أصل من الإسلام.

٥٠- تراثنا الفكري في ميزان الشرع والعقل:

يقع الكتاب في (٢٢٤) صفحة، الطبعة الثانية، من منشورات المعهد العالمي للفكر الإسلامي (١٩٩١م)، والكتاب هو حديث حول العلوم النقلية الإسلامية، وطرائق تدريسها، ووجوب النظر في إعادة بناء برامجها، وإصلاح مختلف جوانب العملية التعليمية المتعلقة بها.

يقع الكتاب في عشرة فصول، عناوينها: إسلامية المعرفة أو المعرفة الإسلامية، أبعاد الوحي الأعلى، آفاقه تغطي الحقيقة

العظمى، توضيح الصورة ومنع الغبش، حقائق في التربية، لمحة عن الابتداع، إعادة كتابة التاريخ، على هامش التفسير، على هامش السنة، مستقبل العربية وآدابها.

٥١- كيف نتعامل مع القرآن الكريم:

يقع الكتاب في (٢٣٦) صفحة، الطبعة الثالثة للمعهد العالمي للفكر الإسلامي، عام (١٩٩٢م)، في مدارسة أجراها الأستاذ عمر عبيد حسنة، وهذا الكتاب عبارة عن مدارسة حول مناهج فهم القرآن المجيد وقضاياه وتفسيره وتأويله وتطبيقه وتبويبه، وعلاقاته بعلوم المسلمين قديمًا وحديثًا، وكيف كان المصدر الأول لثقافة المسلم المعاصر ومعرفته وعلمه، ويعيد المؤلف القرآن الكريم إلى مركز الدائرة في ثقافة المسلم المعاصر.

وتتسم هذه المدارسة بمداخل نقدية عديدة تبعًا لتعدد وتنوع الموضوعات التي تشملها، وذلك في محاولات بذلها المتدارسان لاستخلاص وعي قرآني بشروط معرفية تقارب ضوابط المنهج التحليلي الناقد.

وتكمن أهمية الكتاب في أنه محاولة لتصحيح كثير من المفاهيم المتعلقة بالتعامل مع القرآن في الموضوعات الإسلامية كخطوة أولى، يؤسس بموجبها الوعي المنهجي الإسلامي المعاصر.

ومن عناوين الكتاب: من آثار هجر القرآن، العودة إلى القرآن، من تجربتي الذاتية، شمول الرؤية القرآنية، أبعاد المنهج المطلوب، الحاجة إلى فقه السنن القرآنية، الآثار المدونة لتعطيل

قانون السببية، انفصال العلم عن الحكم، الفقه الحضاري، إدراك السنن الإلهية في الأنفس والآفاق، وسيلة الشهود الحضاري والشهود التاريخي.

٥٢- صيحة تحذير من دعاة التنصير:

يقع الكتاب في (١٥٥) صفحة، طبعة دار الصحوة الأولى، لعام (١٩٩١م) ألف الغزالي هذا الكتاب بعد أن اطلع على كتاب التنصير، الذي يمثل سجلاً للممارسات والمحاورات والمقترحات والنتائج، التي انتهى إليها أحد المؤتمرات التبشيرية في أمريكا.

وهو المؤتمر الذي تخصص في قضية تنصير المسلمين في العالم، وجمع لهذه الغاية ألف مليون دولار، يؤكد المؤلف أن هذا المؤتمر مستنكر الأهداف والوسائل، ومن حق المسلمين في المشارق والمغارب أن يتنادوا بأخذ الحذر والتأهب للدفاع.

والكتاب محاولة لمراجعة المواقف السابقة، وبيان أسباب الحروب الكثيرة التي اشتعلت بين الإسلام والنصرانية، والتي عند التحقيق يتكشف أننا لسنا المسؤولين عنها، وهي دعوة للعقلاء والمخلصين للبحث عن الحقيقة في عصر العقل، وبالثوابت الدينية التي تتفق عليها كل الرسالات السماوية.

من عناوين الكتاب: مبادئ قبل النقاش، ليس عيسى إلهًا، المسلمون أتباع الأنبياء جميعًا، نموذج التنصير الرسمي، قضية المرأة عندنا وعندهم، المرأة في أوروبا وأمريكا

٥٣- نحو تفسير موضوعي لسور القرآن الكريم:

طبعة دار الشروق الثانية (١٩٩٦م) في (٥٦٠) صفحة، هذه دراسة جديدة للقرآن الكريم، تهدف إلى تقديم تفسير موضوعي لكل سورة من سور الكتاب العزيز.

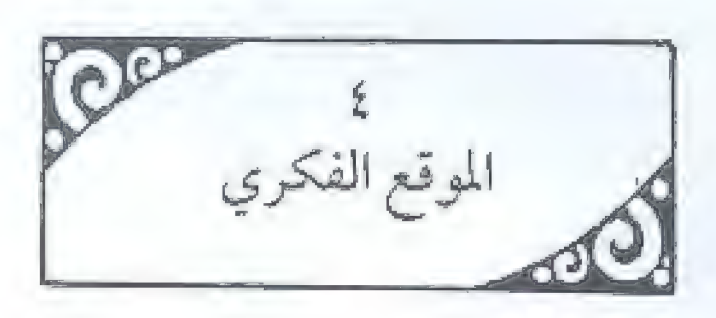
والتفسير الموضوعي غير التفسير الموضعي، الأخير يتناول الآية أو الطائفة من الآيات فيشرح الألفاظ والتراكيب، أما الأول فهو يتناول السورة كلها، يحاول رسم صورة لها؛ تتناول أولها وآخرها، وتتعرف على الروابط الخفية التي تشدها كلها، وتجعل أولها تمهيدًا لآخرها، وآخرها تصديقًا لأولها، والتفسير الموضوعي حلقة من التفسير، ولا يغني عن التفسير الموضعي؛ بل هو تكميل له وجهد ينضم إلى جهوده المقدورة.

وعناوين الكتاب: تشمل كل سور القرآن الكريم، قدم المؤلف - رحمه الله - تفسيرًا موضوعيًا مختصرًا لكل سورة من سور القرآن الكريم.

٥٤- من كنوز السنة:

تحت الطبع.

* * *



٤
الموقع الفكري

(.. إن الإسلام هو صائغ الأئمة المجتهدين، وهم لم يصوغوه.. وإن مصادر الإسلام معصومة؛ لأنها من عند الله، ولكن التفكير فيها والاستنباط منها غير معصوم؛ لأنه من عند الناس..

وإن الأئمة الأوائل كانوا روادًا في تأسيس الفقه الإسلامي؛ والرائد قد يشغله الاكتشاف عن الموازنة والتقدير، ولعل من يجيء بعده يكون أقدر على التنظيم والمراجعة والموازنة والاختيار..)

الشيخ محمد الغزالي

إن « المدرسة الفكرية » – في أية حضارة من الحضارات – هي عنوان على إطار مرن، يضم العديد من العلماء والمفكرين والأعلام، الذين تجمعهم « أصول » متفقون فيها، ومنطلقات ينطلقون منها، وغايات يرومون تحقيقها، وذلك دون أن يكونوا « متماثلين ».. فهم « يتشابهون » في المناهج، و« يتمايزون » في ترتيب أولويات القضايا والمهام، وفي درجات التركيز على بعض ميادين الإصلاح والدراسة، وفي المزاج.. والأسلوب.. ومستوى الخطاب.. ونوع الجمهور.. إلخ.. إلخ.. إلخ.

ذلك هو معنى « المدرسة الفكرية »، في أية حضارة من الحضارات..

وإذا نحن شئنا الاجتهاد في تحديد الموقع الفكري لشيخنا الجليل محمد الغزالي، فإننا لن نجد في هذا التحديد صعوبة ولا عسرًا.. لا لأن الرجل لا يفتأ يعلن أنه واحد من مدرسة الإمام الشهيد، مجدد القرن الرابع عشر الهجري: الشيخ حسن البنا (١٣٢٤ - ١٣٦٨هـ/ ١٩٠٦ - ١٩٤٩م)، فليس ذلك بالأمر الكافي والشافي في التحديد الدقيق لموقعه الفكري.. ففي مدرسة حسن البنا – إذا أردنا بها جماعة الإخوان المسلمين – أكثر من موقع فكري متميز.. بل لقد غدت جامعة لفصائل فكرية بينها ما هو أكثر من «التمايز» في المواقع الفكرية!.. وخاصة بعد غيبة هذا الإمام الشهيد..

أما السبب الحقيقي في يسر تحديد الموقع الفكري والمدرسة الفكرية للشيخ الغزالي.. فهو الاستقراء الواعي لمضمون مشروعه الفكري، وممارساته الحياتية.. وأيضًا كتاباته – هو ذاته – التي يسرت لنا هذا التحديد..

لقد عرض الرجل لتحديد المدارس الفكرية في حضارتنا الإسلامية، عبر المسيرة التاريخية لهذه الحضارة – وخاصة تلك المدارس التي تبلورت في ميدان تخصصه: ميدان الشريعة والتشريع – عرض لهذه الناحية من نواحي تاريخ الفكر الإسلامي، على نحو يشير إلى موقعه هو، والمدرسة التي رأى نفسه واحدًا من أبنائها.

* لقد عرف الفكر الإسلامي: « مدرسة الرأي ».. تلك التي نظر فقهاؤها إلى الظروف والملابسات التي أحاطت بـ« الأثر » - أي « النص » و« الحديث » منه بوجه خاص - ففسروا الحديث على ضوء هذه الملابسات، وفي إطار الآيات القرآنية المحكمة، « وجعلوا الآية القرآنية المحكمة حاكمة على الحديث، ومحددة لمعناه ».

فلم تكن « مدرسة الرأي » - كما يحسب البعض - بعيدة عن « الأثر » وإنما كان هذا هو منهجها في التعامل معه عند الاجتهاد لاستنباط الأحكام..

* أما « مدرسة الأثر » فهي وإن لم تتنكر لـ« الرأي » جملة - كما يحسب البعض - إلا أن الذي ميزها عن « مدرسة الرأي » هو موقفها الذي « كاد أن يكون إمضاء لظاهر النص، مع بعد عن الحرفية.. وإن كان هذا البعد عن الحرفية يتلاشى في بعض القضايا.. ».

* وإلى جانب هاتين المدرستين اللتين انفسحت بينهما المسافة؛ ومن بعدهما نشأت مدرسة ثالثة انتهجت نهج « الموازنة والترجيح بين مدرستي الأثر والرأي ».. وكان تبلور هذه المدرسة الجديدة في القرن السابع الهجري، على يد شيخ الإسلام ابن تيمية (٦٦١ - ٧٢٨هـ/ ١٢٦٣ - ١٣٢٨م) وتلامذته القدامى وخاصة ابن القيم (٦٩١ - ٧٥١هـ/ ١٢٩٢ - ١٣٥٠م).. وهذه المدرسة « مدرسة الموازنة والترجيح بين الأثر والرأي » هي التي

« استوعبت الآثار المروية، وأدركت وجوه الحكمة والمصالح التي تتغياها الشريعة، أي أنها أفادت من الرأي والأثر معًا، وإن كان انتصارها للأثر أظهر، ودفاعها عنه أذكى وأقدر ».

* أما المدرسة الرابعة - في مدارس الأصالة الفكرية في شريعتنا وتشريعنا - فهي تلك التي تبلورت في تاريخنا الحديث، بمجرى محاولات أمتنا للنهوض الحديث.. ومن أعلامها وأئمتها وعلمائها: الشيخ محمد عبده (١٢٦٦ - ١٣٢٣هـ/ ١٨٤٩ - ١٩٠٥م) وتلميذه الشيخ محمد رشيد رضا (١٢٨٢ - ١٣٥٤هـ/ ١٨٦٥ - ١٩٣٥م).. ويتبعهم الشيخ محمود شلتوت (١٣١٠ - ١٣٨٣هـ/ ١٨٩٣ - ١٩٦٣م) ومحمد عبد الله دراز (١٣٧٧هـ/ ١٩٥٨م) ومحمد البهي (١٣٢٣ - ١٤٠٢هـ/ ١٩٠٥ - ١٩٨٢م) ومحمد المدني (١٣٢٥ - ١٣٨٨هـ/ ١٩٠٧ - ١٩٦٨م) وقبلهم الشيخ محمد الخضري (١٢٨٩ - ١٣٤٥هـ/ ١٨٧٢ - ١٩٢٧م) ومنهم الشيخ محمد أبو زهرة (١٣١٦ - ١٣٩٤هـ/ ١٨٩٨ - ١٩٧٤م).. وغيرهم من مجددي ومجتهدي عصرنا الحديث.

وهذه المدرسة الرابعة، وإن اعتمدت الأثر والرأي معًا، وسلكت سبيل الموازنة والترجيح بينهما، إلا أنها تميزت عن مدرسة ابن تيمية « بترويجها للعقل، وتقديم دليله، واعتبارها العقل أصلًا للنقل، وهي تقدم الكتاب على السنة، وتجعل إيماءات الكتاب أولى بالأخذ من أحاديث الآحاد، وهي ترفض

مبدأ النسخ وتنكر إنكارًا حاسمًا أن يكون في القرآن نص انتهى أمده، وترى المذهبية فكرًا إسلاميًا قد يُنْتَفَعُ به، ولكنه غير ملزم، ومن ثم فهي تنكر التقليد المذهبي وتحترم علم الأئمة، وتعمل على أن يسود الإسلام العالم بعقائده وقيمه الأساسية، ولا تلقي بالًا إلى مقالات الفرق والمذاهب القديمة أو الحديثة.. ».

* وغير هذه المدارس الأربع - ذات الطابع الأصيل، والاجتهاد والإبداع المتميزين في تاريخنا التشريعي - هناك « مدرسة الاختيار الشخصي، والتنسيق - وربما التلفيق - بين وجهات النظر المختلفة ».. وكان ظهورها في القرنين الثالث عشر والرابع عشر الهجريين، محاولة للخروج بالفكر الإسلامي من جمود وموات « مؤلفي المتون المذهبية.. »، ومن أعلام هذه المدرسة: الصنعاني (١١٦٩ - ١٢٢٥هـ/ ١٧٥٦ - ١٨١٠م) صاحب كتاب (سبل السلام)، والشوكاني (١١٧٣ - ١٢٥٠هـ/ ١٧٦٠ - ١٨٣٤م) صاحب كتاب (نيل الأوطار).. ومن سار على هذا الدرب، مثل الشيخ سيد سابق في كتابه (فقه السنة).. وصديق خان (١٢٤٨ - ١٣٠٧هـ/ ١٨٣٢ - ١٨٨٩م) في مؤلفاته.. والألباني في رسائله..

تلك هي أبرز المسائل الفكرية، في فكرنا الشرعي والتشريعي، كما أبرزها وحددها شيخنا الجليل محمد الغزالي..

وإذا كان الرجل لا يفتأ يعلن - مفاخرًا ومباهيًا - بأنه من مدرسة حسن البنا.. وإذا كان حسن البنا هو تلميذ رشيد رضا، الذي تتلمذ على محمد عبده.. وإذا كانت (رسالة التوحيد) و (الإسلام والنصرانية مع العلم والمدنية) - وهما من أكثر آثار محمد عبده الفكرية تعبيرًا عن خصوصية مدرسته - كانا مادة درس وتدريس لأسر وشباب وتنظيمات جماعة الإخوان المسلمين على عهد مرشدها الأول حسن البنا.. إذا كان الأمر كذلك، فلن نعدو الصدق والموضوعية إذا قلنا: إن الشيخ الغزالي هو واحد من أعلام هذه المدرسة الفكرية.. مدرسة الجامعة الإسلامية.. مدرسة الإحياء والتجديد الحديثة لفكر الإسلام، لتتجدد به حياة المسلمين..

وإذا كنا قد سبق وقلنا: إن « المدرسة الفكرية » هي تعبير عن إطار مرن، يتفق أعلامه وعلماؤه في الأصول والمنطلقات والغايات، ثم يتمايزون في الكثير من الأمور، فإننا يجب أن نستحضر هذا المعنى ونحن نقول: إن شيخنا الغزالي هو واحد من علماء هذه المدرسة، وإن موقعه الفكري هو في الإطار الذي يجمع أعلام هذا التيار..

فالرجل يكاد أن يحتضن كل تراث الإسلام، وأن يستدعي من ثمرات إبداع المدارس الفكرية المختلفة كل اللبنات الصالحة للعطاء في مواجهة ما تواجه من تحديات.

ثم هو لا يرى في تعدد المدارس الفكرية وتنوعها – بعد عصر الأئمة الأوائل – أمرًا قادحًا في أداء هؤلاء الأئمة العظام: مالك بن أنس (٩٣ – ١٧٩هـ/ ٧١٢ – ٧٩٥م) وأبي حنيفة النعمان (٨٠ – ١٥٠هـ/ ٦٩٩ – ٧٦٧م) ومحمد بن إدريس الشافعي (١٥٠ – ٢٠٤هـ/ ٧٦٧ – ٨٢٠م) وأحمد بن حنبل (١٦٤ – ٢٤١هـ/ ٧٨٠ – ٨٥٥م)، ومن هو على شاكلتهم من أئمة ذلك الجيل.. ذلك « لأن الأئمة الأوائل – خصوصًا الأربعة الكبار – كانوا روادًا في تأسيس الفقه الإسلامي، والرائد قد يشغله الاكتشاف عن الموازنة والتقدير، ولعل من يجيء بعده يكون أقدر على التنظيم والمراجعة، والموازنة والاختيار.. ».

ولعل هذه المدارس، وتنوعها، هو جزء من النمو الطبيعي لهذا البناء الفكري، وضع أصحابه في الاعتبار أمورًا جدت، وعلومًا ومعارف لم تكن على عهد الأئمة المؤسسين.. ليس الأمر أمر نقض وهدم وإلغاء.. وإنما هو أمر تطور وتقدم ونماء.

ثم.. إن النهر العظيم: نهر الأصول الإسلامية – كتابًا وسنة، وهي المنابع الجوهرية والنقية، ولها وحدها القدسية من دون إبداعات البشر أجمعين – إن هذا النهر يظل دائمًا وأبدًا داعيًا كل المجتهدين والمجددين إلى الاغتراف منه مباشرة، بدلًا من الشرب من « السواقي » التي تغترف منه هي الأخرى!.. « فالإسلام هو صانع أولئك الرجال كلهم، وهم لم يصوغوه، وإن مصادر الإسلام معصومة؛ لأنها من عند الله، ولكن التفكير فيها والاستنباط

منها غير معصوم؛ لأنه من عند الناس، وإن الانتفاع بكل فقيه ذكي يدعم مسيرتنا العلمية، ولا يضيرها أبدًا، ويجب أن تنتفي الحساسية والكراهية للأشخاص، وإن وجود هنات في رأي هذا أو سيرة ذاك لا تهدم عبقريته أو تخدش تفوقه، إن كان صاحب عبقرية وتفوق.. ».

هكذا رأى الشيخ الغزالي مدارس الفكر في تراثنا الفقهي والتشريعي[1] وهكذا رأينا الإطار الذي نعتقد أن فيه موقعه الفكري.. إطار مدرسة الإحياء والتجديد، وخاصة فصيلها الذي انتقل بإسلامية المعرفة والحياة من إطار « الصفوة » – كما كان الحال على عهد الشيخ محمد عبده – إلى إطار « الأمة وجماهيرها »، وهي المرحلة التي بدأت بالشيخ حسن البنا – عليه رحمة الله –..

على أننا نظلم الشيخ الغزالي إذا لم ننبه على تميزه في الفصيل الذي كان حسن البنا إمامه في مدرسة الجامعة الإسلامية.. فلقد كان متميزًا منذ بدأ مشروعه الفكري (١٩٤٧م) بكتابه الأول (الإسلام والأوضاع الاقتصادية).. ثم إن الرجل – رحمه الله – قد امتدت به التجربة وامتد به الجهاد بعد استشهاد حسن البنا قرابة الخمسين عامًا.. فواجه ما لم يواجه هذا الفصيل في النصف الأول من هذا القرن العشرين.. ومن ثم فلقد أبدع الجديد الذي أضافه إلى رؤية هذا الفصيل.

[1] انظر (دستور الوحدة الثقافية بين المسلمين)، (ص ٨٥ – ٩٣).

وإذا شئنا نموذجًا واحدًا يشهد على صدق هذا الذي نقول، فإننا نشير إلى أن الشيخ حسن البنا قد سبق وصاغ هذا الفصيل « المفكر - المجاهد » ما عرف بـ« التعاليم العشرين »، وهي التي دار أغلبها حول « فهم عقائد الإسلام »[1].. فجاء الشيخ الغزالي « ليضيف » إليها - في تواضع العالم الوفي لأستاذه - ما سماه: « المقررات العشر »، والتي تمثل البعد الاجتماعي والسياسي والدولي لهذه العقائد التي صاغها البنا في « التعاليم العشرين ».. فكتب يقول تحت عنوان : (مقررات عشر): « أعطيت نفسي الحق في إضافتها إلى التعاليم العشرين لمجدد القرن الرابع عشر الإمام الشهيد حسن البنا - رحمه الله - ولا أدري أأصبت في هذه الإضافة أم أخطأت؟.. وحسبي أن الحق قصدت.. وهذه هي الإضافات التي أرى المجتمع الإسلامي محتاجًا إليها:

١ - النساء شقائق الرجال، وطلب العلم فريضة على الجنسين كليهما، وكذلك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وللنساء - في حدود الآداب الإسلامية - حق المشاركة في بناء المجتمع وحمايته.

٢ - الأسرة أساس الكيان الخلقي والاجتماعي للأمة، والمحضن الطبيعي للأجيال الناشئة، وعلى الآباء والأمهات واجبات

(١) انظرها في (رسالة التعاليم) - مجموعة رسائل الإمام الشهيد حسن البنا - (ص ٢٦٨ - ٢٧١)، طبعة دار الشهاب، القاهرة.

مشتركة لتهيئة الجو الصالح بينهما، والرجل هو رب الأسرة، ومسؤوليته محدودة بما شرع الله لأفرادها جميعًا.

٣- للإنسان حقوق مادية وأدبية تناسب تكريم الله له، ومنزلته الرفيعة على ظهر الأرض، وقد شرح الإسلام هذه الحقوق ودعا إلى احترامها.

٤- الحكام - ملوكًا كانوا أم رؤساء - أجراء لدى شعوبهم، يرعون مصالحها الدينية والدنيوية، ووجودهم مستمد من هذه الرعاية المفروضة، ومن رضا السواد الأعظم بها، وليس لأحد أن يفرض نفسه على الأمة كرهًا، أو يسوس أمورها استبدادًا.

٥- الشورى أساس الحكم، ولكل شعب أن يختار أسلوب تحقيقها، وأشرف الأساليب ما تمحض لله، وابتعد عن الرياء والمكاثرة والغش وحب الدنيا.

٦- الملكية الخاصة مصونة بشروطها وحقوقها، التي قررها الإسلام، والأمة جسد واحد لا يهمل منه عضو، ولا تزدرى فيه طائفة، والأخوة العامة هي القانون الذي ينتظم الجماعة كلها فردًا فردًا، وتخضع له شؤونها المادية والأدبية.

٧- أسرة الدولة الإسلامية مسؤولة عن الدعوة الإسلامية، وذود المفتريات عنها، ودفع الأذى عن أتباعها حيث كانوا، وعليها أن تبذل الجهود لإحياء الخلافة في الشكل اللائق بمكانتها الدينية.

٨- اختلاف الدين ليس مصدر خصومة واستعداء، وإنما تنشب الحروب إذا وقع عدوان أو حدثت فتنة أو ظلمت فئات من الناس.

٩- علاقة المسلمين بالأسرة الدولية تحكمها مواثيق الإخاء الإنساني المجرد، والمسلمون دعاة لدينهم بالحجة والإقناع فحسب، ولا يضمرون شرًّا لعباد الله.

١٠- يسهم المسلمون مع الأمم الأخرى – على اختلاف دينها ومذاهبها – في كل ما يرقى ماديًّا ومعنويًّا بالجنس البشري، وذلك من منطلق الفطرة الإسلامية والقيم التي توارثوها عن كبير الأنبياء: محمد عليه الصلاة والسلام.. »[1].

تلك هي « المقررات العشر »، التي مثلت نموذجًا – مجرد نموذج – للإبداع وتجديد وتطوير فكر الشيخ الغزالي، عندما واجه الظروف الجديدة والواقع الجديد.. فأضاف هذه الأبعاد الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والإنسانية – في الأسرة والأمة، ونظام الحكم، والعلاقة بغير المسلمين، وفي العلاقات الدولية – أضاف هذه الأبعاد إلى « التعاليم العشرين »، التي صاغها الإمام الشهيد حسن البنا.

إنها إضافات يمكن أن يفرد لشرح أبعادها كتاب كامل، يمثل كل « مقرر » من « مقرراتها » فصلًا من فصول هذا الكتاب..

---

(١) دستور الوحدة الثقافية بين المسلمين، (ص ٢٦٨، ٢٦٩).

وهي - كما أسلفنا - نموذج من نماذج كثيرة جدًا على الإبداع والتجديد المتميز لشيخنا الغزالي، في إطار هذه المدرسة الفكرية المتميزة.. مدرسة الإحياء والتجديد لفكرنا الإسلامي الحديث.. لا لمجرد الإحياء والتجديد - كعمل فكري مجرد - وإنما ليصبح هذا الفكر المتجدد سلاحًا بيد الكتائب المجاهدة، تجدد به حياة الأمة الإسلامية، على امتداد أوطان دار الإسلام.

※※※

٥

أولى المعارك الفكرية ضد الظلم الاجتماعي

(.. من العسير أن تملأ قلب إنسان بالهدى، إذا كانت معدته خالية!.. أو أن تكسوه بلباس التقوى، إذا كان جسده عاريًا!.. فلا بد من التمهيد الاقتصادي الواسع، والإصلاح العمراني الشامل، إذا كنا مخلصين حقًّا في محاربة الرذائل باسم الدين، أو راغبين حقًّا في هداية الناس لرب العالمين..)

الشيخ محمد الغزالي

لقد جاء « المشروع الفكري » للشيخ محمد الغزالي - والذي زاد عن خمسين كتابًا - جاء شاهدًا على مجموعة المعارك الكبرى التي واجه بها شيخنا أبرز التحديات والمخاطر التي واجهت وتواجه طموح الأمة الإسلامية في النهوض والتقدم والانعتاق، وحاجة الفكر الإسلامي إلى التجديد، كي يكون قادرًا على الوفاء بمتطلبات هذا التقدم المنشود بالنسبة للمسلمين..

وإذا كان المقام لا يسمح باستقصاء هذه المعارك الكثيرة التي تجسدت في هذا المشروع الفكري، فإننا سنختار منها.. أولاها، وأحدثها.. تاركين الاستقصاء لدراسة متخصصة - حبذا لو كانت أطروحة دكتوراه - .

- في مواجهة الظلم الاجتماعي

لقد سبقت إشارتنا إلى أن أولى المعارك الفكرية التي خاضها فكر الشيخ الغزالي إنما كانت ضد الاستبداد المالي والمظالم الاجتماعية.. وفي إطار هذه المعركة كانت كتبه الأولى: (الإسلام والأوضاع الاقتصادية) و (الإسلام والمناهج الاشتراكية) و (الإسلام المفترى عليه بين الشيوعيين والرأسماليين) وكتابه (الإسلام في وجه الزحف الأحمر).

ولقد يستغرب البعض - وخاصة من أصدقائنا وإخواننا العلمانيين، ذوي المرجعية الفكرية التغريبية، غير الملمين بموقف الإسلام وتراثه من القضية الاجتماعية، ومذهبه في الأموال والثروات - قد يستغرب هؤلاء أن تكون أولى معارك هذا الشيخ الأزهري - خريج كلية أصول الدين، والذي يحترف « الوعظ والدعوة » في مساجد وزارة الأوقاف، والذي لم يدرس الاقتصاد ولم يتفقه في النظريات الاجتماعية الغربية - قد يستغربون أن تكون أولى معاركه الفكرية في ميدان الاقتصاد والاجتماع، وأن يكون هذا هو حجم إسهامه المبكر في هذا الميدان!..

والحقيقة أن هذا الموقف القائم على « الجبهة العلمانية » يثير قضية « الجهل، والتجاهل » العلماني لإسهام الإسلام والإسلاميين في ميدان الفكر الاجتماعي، كموقف دائم وصارخ وأصيل!!.. وإلا فمن يعرف أن حسن البنا - والإخوان المسلمين - كانوا

أسبق الحركات السياسية والتيارات الفكرية - بمصر - التي طالبت بتحديد ملكية الأرض الزراعية، ونزع الأملاك الزائدة عن الحد الأقصى من كبار الملاك وتوزيعها - هي وأملاك الحكومة - على الفقراء والمعدومين من الفلاحين؟!.. من يعرف هذه الحقيقة «التاريخية - الاجتماعية» من الكتاب العلمانيين؟!

إن المطالبة بتحديد حد أقصى للملكية الزراعية، وتوزيع الزائد عنه على الفلاحين، قد طالب به «الحزب الاشتراكي»، حزب الأستاذ أحمد حسين بواسطة نائبه في مجلس النواب المصري: الأستاذ إبراهيم شكري في سنة (١٩٥١م).. أما مشروع عضو الشيوخ محمد خطاب، الذي طالب بتحديد حد أقصى للملكية الزراعية، والذي قدمه للمجلس في (٢٥/٦/١٩٤٥م)، فلقد كان يطلب ذلك في الملكيات التي تتكون مستقبلًا - حتى تتوجه الأموال في الريف إلى التصنيع، بدلًا من حيازة الأطيان - ولم يكن يدعو إلى تطبيق هذا التحديد على الملكيات التي كانت قائمة يومئذ، والتي كان يتعدى الكثير منها الخمسة آلاف والعشرة آلاف فدان.. بل وحتى الحزب الشيوعي في مصر، فإنه لم يطالب في برنامجه «بإلغاء الملكية الكبيرة، وإعادة توزيع الملكيات الزراعية..»[1].

(١) انظر د. عاصم الدسوقي (كبار ملاك الأراضي الزراعية ودورهم في المجتمع المصري)، (١٩١٤ - ١٩٥٢م)، (ص ٣٠٧) وما بعدها، طبعة القاهرة، دار الثقافة الجديدة، سنة (١٩٧٥م).

أما حسن البنا فهو الذي طالب في منتصف عقد الأربعينات - أي قبل سبع سنوات من مشروع إبراهيم شكري - بإصلاح الخلل المتمثل في التفاوت الفاحش بين الملكيات الزراعية في الريف.

ذلك أن « روح الإسلام الحنيف وقواعده الأساسية في الاقتصاد القومي، توجب علينا أن نعيد النظر في نظام الملكيات في مصر، فنختصر الملكيات الكبيرة، ونعوض أصحابها عن حقهم بما هو أجدى عليهم وعلى المجتمع، ونشجع الملكيات الصغيرة، حتى يشعر الفقراء المعدمون بأنه قد أصبح لهم في هذا الوطن ما يعنيهم أمره ويهمهم شأنه.. وأن توزع أملاك الحكومة على هؤلاء الصغار..!! ».

كما طالب أيضًا - في ذات التاريخ - « بفرض ضرائب اجتماعية، على النظام التصاعدي - بحسب المال، لا بحسب الربح - يعفى منها الفقراء طبعًا، وتجبى من الأغنياء الموسرين، وتنفق في رفع مستوى المعيشة بكل الوسائل المستطاعة.. »[1].

فهو - إذن - « الموقف الرائد » للإسلاميين في هذا الميدان المهم.. ذلك الذي « يجهله - ويتجاهله » إخواننا العلمانيون!..

وإذن.. فلم يكن بالغريب - ولا بالعجيب - أن يبدأ شيخنا الغزالي أولى معاركه في هذا الميدان..

---

(١) مشكلاتنا في النظام الإسلامي، مجموعة رسائل، (ص ٢٤٢).

صحيح أن الرجل « داعية » يحترف « الوعظ والإرشاد »، وأنه لم يدرس في الأزهر آدم سميث (١٧٢٣ - ١٧٩٠م) ولا كارل ماركس (١٨١٧ - ١٨٨٣م).. ولكنه - رغم روح الأديب في ثقافته وأسلوبه، وطبيعة الفنان في نظرته إلى الأشياء - إلا أنه قد امتلك منذ بداية حياته، والمراحل الأولى لتكوينه الفكري.. امتلك خاصيتين دخلتا به إلى هذا الميدان من أوسع الأبواب:

١ - امتلك الخبرة الذاتية العميقة بالأبعاد الرهيبة، واللا إنسانية، لمأساة الظلم الاجتماعي، التي كانت تمسك بخناق الفلاح المصري - وفيه يتمثل جمهور الأمة - عندما نشأ في القرية المصرية « نكلا العنب »، مركز إيتاي البارود، محافظة البحيرة.. كابن فقير لأسرة فقيرة تعيش في محيط الفقراء..

٢ - وامتلك الرؤية الإسلامية التي مثلت وتمثل عدل الله وميزان القسطاس المستقيم الذي شرعه سبيلًا للخلاص من الظلم بكل ألوانه، في أي زمان ومكان..

ولذلك.. رأينا هذا « الداعية » و« الأديب - الفنان ».. الذي يحترف « الوعظ والإرشاد » في مساجد وزارة الأوقاف، يتوكل على الله، فيبدأ معاركه الفكرية بمنازلة الاستبداد المالي والظلم الاجتماعي.. أعتى وأخطر أعداء الإنسان!..

* عندما استمع الشيخ الغزالي إلى الفنان الكبير محمد عبد الوهاب يغني قصيدة أمير الشعراء أحمد شوقي (١٢٨٥ - ١٣٥١هـ/

١٨٦٨ - ١٩٣٢م) عن صمود دمشق في معركة الحرية أمام جحافل الفرنسيين الغزاة، وتأمل تلحين عبد الوهاب لقول شوقي:

وللحرية الحمراء باب

بكل يد مضرجة يدق

تحدث حديث الناقد الفنان، فقال: « .. لقد شعرت بأن المغني فشل فشلًا ذريعًا في تلحينه!.. كان ينبغي أن يتعاون النغم والأداء على إبراز صوت المطارق، التي تهوي على الأبواب الموصدة، وجؤار المجاهدين وهم يهاجمون السجون التي قبعت داخلها الجماهير المستعبدة، وعزائم الشهداء وهم يجودون بأنفسهم فداء للحق، وأنين الجرحى، وعناد المكابرين.. إن حشودًا من الأصوات المزمجرة، والجيوش الملتحمة كان يجب أن تبرز خلال تلحين القصيدة، وعند غناء هذا البيت ذاته.. لكن الملحن المغني ليس رجل هذه الملحمة!.. »[1].

إنه « فنان » لكنه « الفنان » الذي يغوص بمشاعره، وأيضًا بعقله إلى الأعماق..

وفي عقد الأربعينات من هذا القرن العشرين - عندما بدأ الشيخ الغزالي معركته الفكرية الأولى ضد التفاوت الاجتماعي

---

(١) السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث، (ص ٧٣، ٧٤)، طبعة القاهرة سنة (١٩٨٩م).

الصارخ، والظلم الاقتصادي الفاحش - كانت الثقافة السائدة، ومعها الفن والإعلام يتحدثون عن الريف المصري بأنه موطن الجمال، ومسرح «الماء.. والخضرة.. والوجه الحسن..» فـ«ما أحلاها عيشة الفلاح.. مطمئن وباله مرتاح!»... لكن الشيخ الغزالي يبدأ معركته برفض هذا الزيف.. ويقول: «إن تطرقي للأشياء واقعية اقتصادية، لا أثر فيها للخيال»[1].

ثم يمضي ليكشف زيف الفكر، الذي يتوهم أصحابه إمكانية إصلاح أحوال الناس بالمواعظ والأفكار دون تغيير الواقع المادي الاجتماعي، الذي يلعب دوره البارز في فتح العقول والقلوب كي تتقبل المواعظ والأفكار..

يمضي ليكشف العلاقة بين الإصلاح المادي وبين الإصلاح الأدبي والروحي لحياة الناس، محددًا نهجه في معالجة الأدواء الاجتماعية والاقتصادية التي تعاني منها مجتمعات المسلمين.. «فشعوب الشرق الإسلامي - برأي الشيخ الغزالي - تحتاج - قبل أن تفهم الإسلام، وقبل أن يُنتظر منها إعزاز الإسلام - إلى جهود جبارة لرفع مستواها المادي والأدبي، أي إلى تصحيح إنسانيتها أولاً، أما جهود المصلحين - قبل اتخاذ هذه الخطوة - فهي أمواج من الماء، تتدفق على صحراء من الرمال.. وهيهات أن يكون لها ثمر!!..»[2] ذلك أن «للرذائل» التي يخلقها

---

(1) الإسلام والأوضاع الاقتصادية، (ص ١٨٢)، طبعة القاهرة سنة (١٩٧٨م).

(2) المرجع السابق، (ص ١٣٣).

الدين، و« للفضائل » التي جاء الدين ليحلها محل « الرذائل » هذه وتلك أسباب اقتصادية، لا بد من معالجتها، إذا شئنا إقامة الدين الحق في هذه الحياة..

يقول الشيخ الغزالي: « لقد رأيت - بعد تجارب عدة - أنني لا أستطيع أن أجد بين الطبقات البائسة الجو الملائم لغرس العقائد العظيمة، والأعمال الصالحة، والأخلاق الفاضلة!! إنه من العسير جدًا أن تملأ قلب إنسان بالهدى إذا كانت معدته خالية، أو أن تكسوه بلباس التقوى إذا كان جسده عاريًا!.. إنه يجب أن يُؤَمَّن على ضروراته التي تقيم أوده كإنسان، ثم يَنْتَظِر بعدئذ أن تستمسك في نفسه مبادئ الإيمان.. فلا بد من التمهيد الاقتصادي الواسع، والإصلاح العمراني الشامل، إذا كنا مخلصين حقًا في محاربة الرذائل والمعاصي والجرائم باسم الدين، أو راغبين حقًا في هداية الناس لرب العالمين »[1].

وينهض الشيخ الغزالي، فيدافع عن إسلامية هذا المنهج في إصلاح أدواء المجتمع والناس، نافيًا الوهم الذي يحسب أصحابه أن إعطاء العامل الاقتصادي والاجتماعي حقه في العملية الإصلاحية، إنما هو خصيصة من خصائص المنهج المادي للشيوعية والشيوعيين.. فيقول: « .. يتوهم ذوو الآفاق المغلقة أن إدخال العوامل الاقتصادية في الرذائل والفضائل جنوح إلى التفكير الشيوعي القائم على النظرة المادية المحضة للحياة! واستهانة بالقوى

(١) المرجع السابق، (ص ٦١، ٦٢).

الروحية السامية.. وهذا التوهم خاطئ، فلسنا نغض من قيمة الجانب الروحي.. بيد أن ذلك لا يعني إغفال المشاهد المحسوس، من تولد الرذائل الخطيرة في المجتمعات المصابة بالعوز والاحتياج، بل إن الاضطراب الاقتصادي في أحوال كثيرة جدًا قد يكون السبب الأوحد في نشوء الرذيلة وشيوعها، والحديث النبوي الذي يُلمّح فيه نبي الإسلام إلى أن المعاصي قد توقع فيها الضوائق المادية - حديث: « إن المدين قد تلجئه قلة الوفاء إلى الكذب » - يضع أيدينا على طرف الحقيقة التي بدأ الناس يفهمونها الآن كاملة.. »[1].

لقد تبنى الشيخ وأبرز هذا المنهج الإسلامي الأصيل، الذي يرى أن صلاح أمر الدين مؤسس على صلاح أمور الدنيا - وليس العكس - وإذا كان القرآن الكريم قد نبه على أن الاستبداد والانفراد بالسلطة والسلطان - إنْ في المال أو السياسة - هو المقدمة المفضية إلى الطغيان.. ﴿ كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ ۞ أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ ﴾ [العلق: ٦، ٧].. فلقد صاغ هذا المنهج الإسلامي - من قبل - الإمام أبو حامد الغزالي (٤٥٠ - ٥٠٥هـ/ ١٠٥٨ - ١١١١م) عندما قال: « إن نظام الدين لا يحصل إلا بنظام الدنيا.. فنظام الدين - بالمعرفة والعبادة - لا يتوصل إليهما إلا بصحة البدن، وبقاء الحياة، وسلامة قدر الحاجات من: الكسوة، والمسكن، والأقوات، والأمن.. ولعمري من أصبح آمنًا في

---

(١) المرجع السابق، (ص ٩١ - ٩٣).

سربه، معافى في بدنه، وله قوت يومه، فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها.. فلا ينتظم الدين إلا بتحقيق الأمن على هذه المهمات الضرورية، وإلا فمن كان جميع أوقاته مستغرقًا بحراسة نفسه من سيوف الظلمة، وطلب قوته من وجوه الغلبة، متى يتفرغ للعلم والعمل، وهما وسيلتاه إلى سعادة الآخرة؟!. فإذن، بان أن نظام الدنيا - أعني مقادير الحاجة - شرط لنظام الدين..»[1].

فهو - إذن - منهج الإسلام الحق.. تبناه كل فقهاء الإسلام العدول، عندما حكموا بأن صلاة الخائف والجائع لا تصح!.. فالأمن على ضرورات الدنيا، وانتظام أحوالها، هو الشرط الضروري لإقامة الدين في هذه الحياة!..

ويدرك الشيخ الغزالي أن استمرار آفات الظلم الاجتماعي هو أمر مخطط له، ومستهدف، ومقصود!.. فالقلة التي تحتكر السلطان السياسي، حريصة - كي تدوم لها هذه الأثرة - على عزل جماهير الأمة عن منازعتها هذا السلطان السياسي، وذلك بإبقائها أسيرة قيود الفقر والعوز التي تشل ما لديها من طاقات وإمكانات!.. «إذن، فبقاء كثير من الناس صرعى الفقر والمسكنة - والحق يقال - هدف أكثر الحكومات المتتابعة، في العصور السابقة واللاحقة؛ إذ إن تجويع الجماهير بعض الدعائم التي تقوم عليها سياسة الظلم والظلام، ومن هنا انتشر الفقر في الشرق، وشحّ

(1) أبو حامد الغزالي (الاقتصاد في الاعتقاد)، (ص ١٣٥)، طبعة القاهرة، المكتبة المحمودية التجارية، صبيح، بدون تاريخ.

الدين ورجاله لحمل الناس على قبوله واستساغته، وفُسِّرت نصوص الدين المتصلة بهذا المعنى تفسيرًا سقيمًا، نسي الناس معه حقوقهم وحياتهم، وجهلوا دنياهم وآخراهم، وحسبوا الفقر في الدنيا سبيلًا إلى الغنى في الآخرة.. »[1]!.

وإذا كان الإسلام بريئًا من هذه التفسيرات « الخاطئة – الجبانة »، لمأثوراته المتعلقة بالثروات والأموال والفكر الاجتماعي.. فإن الشيخ الغزالي يفتح عقول قرائه على حقيقة فلسفة الإسلام في هذه القضية المحورية من قضايا النهوض والإصلاح.. فالوسطية –أي العدل والتوازن – هي فلسفة الإسلام في الأموال والثروات.. وعلى الحكومات أن تحقق هذه الفلسفة في الممارسة والتطبيق، وأن تسهر على إعادتها إلى نصابها كلما لحق بها خلل أحل الظلم محل العدل والتوازن والقسط الذي يجب أن يحكم علاقات الناس بالثروات والأموال..

« إن هدف الديانات والرسالات هو قيام التوازن بين الناس، بإقامة العدل الاجتماعي والسياسي فيهم.. وقيام الناس بالقسط – نعدل – هو محور الارتكاز الذي لا يتغير أبدًا، وقد قال بعض علماء الأصول: إن مصالح الناس المرسلة، لو وقف دون تحقيقها نص أُوِّل هذا النص، وأمضيت المصالح التي لا بد منها.. وللحكومة – من وجهة النظر الدينية – أن تقترح ما تشاء من الحلول، وأن تبتدع ما تشاء من الأنظمة لضمان هذه

(1) الإسلام والأوضاع الاقتصادية، (ص ١٥٨).

المصلحة، وهي مطمئنة إلى أن الدين معها لا عليها، ما دامت تتحرى الحق، وتبتغي العدل وتنضبط بشرع الله فيما تصدره من اقتراحات وقوانين.. »[1].

ولا ينسى الشيخ الغزالي أن هناك تفسيرًا من التفسيرات « الإسلامية » - في المأثورات المالية - لا يوجب أصحابه في الأموال أكثر من الزكاة!!.. فيتقدم منحازًا إلى أغلبية العلماء الذين رفضوا هذا التفسير، وأطلقوا يد ولي الأمر في الأموال حتى يقوم التوازن الاجتماعي، وتعتدل موازين القسط بين الناس.. فيقول: « .. والمال الذي يكفي لإذهاب العَيْلَة، واستئصال الحرمان، وإشاعة فضل الله على عباده، يجب إخراجه - مهما عظم - من ثروات الأغنياء، ولو تجاوز تجاوزًا بعيدًا مقادير الزكاة المفروضة؛ لأن حفظ الحياة حق إسلامي أصيل - ومقادير الزكاة ليست إلا الحد الأدنى لما يجب إنفاقه - وقد ورد عن النبي ﷺ: « إن في المال حقًّا غير الزكاة »[2]..

بل ويؤكد شيخنا على أن فلسفة الإسلام في الأموال هذه التي تقوم على التوازن - العدل - إنما ترتكز على مبدأ: أن الملكية الحقيقية في الأموال - ملكية الرقبة - هي لله ﷻ وحده، وأن ملكية الإنسان في المال إنما هي ملكية مجازية - ملكية منفعة - باعتباره مُسْتَخْلَفًا في المال، وليس مالكه على سبيل التحقيق..

---

(1) المرجع السابق، (ص ١٤٦، ١٤٧).

(2) المرجع السابق، (ص ١٥٧)، والحديث رواه الترمذي برقم (٦٦٠).

«.. فالمال الذي في أيدينا هو ملكنا على التجوز لا على الحقيقة، ونحن مستخلفون فيه لينظر الله ﷻ ماذا نعمل به، فإما حكمت تصرفاتنا لنا أو علينا، وإلى هذا يشير القرآن: ﴿وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ﴾ [النور: ٣٣]، ﴿وَأَنفِقُوا۟ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَأَنفَقُوا۟ لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ [الحديد: ٧]»[1].

وانطلاقًا من هذه الفلسفة الإسلامية في الأموال والثروات - وفي القضية الاجتماعية - كان طبيعيًّا أن يتقدم الشيخ الغزالي في أول كتاب ألفه سنة (١٣٦٦هـ / ١٩٤٧م) - كأول طلقة في أولى معاركه الفكرية - أن يتقدم ببرنامج للإصلاح الاجتماعي والمالي، يقترح فيه:

١- تأميم المرافق العامة، وجعل الأمة هي المالكة الأولى لموارد الاستغلال، وإقصاء الشركات المحتكرة لخيرات الوطن، أجنبية أو غير أجنبية، وعدم إعطاء أي امتياز فردي من هذا القبيل.

٢- تحديد الملكيات الزراعية الكبرى، وتكوين طبقة من صغار الملاك، تؤخذ نواتها من العمال الزراعيين.

٣- فرض ضرائب على رؤوس الأموال الكبرى، يقصد بها تحديد الملكيات غير الزراعية.

٤- استرداد الأملاك التي أخذها الأجانب، وإعادتها إلى أبناء البلاد، وتحريم تملك الأرض المصرية على الأجانب تحريمًا مؤبدًا.

---

(١) الإسلام والأوضاع الاقتصادية (ص ١٤٥).

٥- ربط أجور العمال بأرباح المؤسسات الاقتصادية التي يعملون فيها، بحيث تكون لهم أسهم معينة مع أصحابها في الأرباح.

٦- فرض ضرائب تصاعدية على التركات، تنفق في وجوه الخير، على النحو الذي أشار به القرآن، إذ يقول: ﴿وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُوا الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُم مِّنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾ [النساء: ٨]..

ثم يختم حديثه عن هذا البرنامج بقوله: « ولو لم يبق لكل فرد من أفراد الشعب إلا قوته الضروري، لما جاز أن تتراجع الدولة في تحقيق هذا البرنامج، الذي تعلن به الحرب على الظلم والجهالة والاستعمار.. »[1].

هذا عن أولى المعارك الفكرية للشيخ الغزالي، التي خاضها ضد الاستبداد المالي، والظلم الاجتماعي، كواحد من أخطر التحديات التي تشل طاقات الأمة، وتحول بينها وبين التقدم والنهوض والانطلاق..

* * *

(١) الإسلام والأوضاع الاقتصادية، ص ١٨٠، ١٨١.

٦

أحدث المعارك الفكرية ضد « النصوصية الحَرْفية »

(.. إنه لا فقه بغير سُنَّة، ولا سُنَّة بغير فقه.. وقوام الإسلام بركنيه كليهما من كتاب وسُنَّة..

وهل السنة إلا امتداد لسنا القرآن، وتفسير لمعناه، وتحقيق لأهدافه ووصاياه؟!..)

الشيخ محمد الغزالي

أما المعركة الفكرية الحديثة، والتي أفرد لها شيخنا محمد الغزالي أحد كتبه – وهو كتاب (السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث) – وهي المعركة التي احتدم الجدل حول قضاياها عدة أعوام على صفحات الصحف والمجلات، وفي الكتب، ومن على كثير من منابر المساجد، وبواسطة « تسجيلات الكاسيت » فهي معركته ضد « النصوصية الحرفية » و« الظاهرية الجديدة » التي أنعشتها، وامتدت بتأثيراتها السلبية خارج نطاقها التاريخي « حقبة النفط » في منطقة الخليج.

ولقد زعم خصوم الشيخ الغزالي – ويزعمون – أن معركته هذه إنما هي ضد السنة النبوية، وضد المحدِّثين!. لكن حقيقة الأمر أن الرجل – ويشهد على ذلك تاريخه وعمله وكتاباته –

إنما هو مجاهد ومنافح عن سنة رسول الله ﷺ ضد لون من « محبي السنة »، يشبه « حبهم » لها حب الدبة القاتلة بحبها - الأعمى - للمحبوب!. وأيضًا ضد فريق من جاحدي السنة ومنكريها..

إنه داعية إلى حب السنة حبًا واعيًا، على النحو الذي يجعلها - كما أرادها الله تعالى - « بيانًا » للقرآن الكريم ﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [النحل: ٤٤].. و « إراءة » إلهية لنبيه كاشفة عن مرامي التنزيل الحكيم ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ ﴾ [النساء: ١٠٥]..وهو - سواء في كتابه القديم (فقه السيرة) أو في كتابه الحديث (السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث) أو في غيرهما من الكتب التي عرض فيها للسنة والسيرة - إنما يروم تحقيق التكامل بين فقه الفقيه ورواية المحدث، بين الدراية والرواية، لتنتفي من ساحتنا الفكرية أسباب الشذوذ التي جعلت البعض ينكر السنة جملة ويتنكر لها، وجعلت آخرين - حتى وإن لم يعلنوا - يمارسون تقديم روايات آحاد ومرويات معلولة على النص القرآني المحكم الذي تعهد الله بحفظه، والذي ﴿ لَّا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ [فصلت: ٤٢]..

فمعركة الشيخ الغزالي هذه إنما هي دفاع عن السنة الحقة، لا ضد حرفية « الظاهرية البدوية » الجديدة وحدها، وإنما - أيضًا -

ضد الذين يستندون إلى الثمرات الشاذة لهذه « الحرفية » في إنكارهم المطلق والمتعسف لسنة رسول الله ﷺ..

وحول هذه الأبعاد لهذه المعركة يتحدث الشيخ الغزالي فيقول: « تواجه السنة النبوية هجومًا شديدًا في هذه الأيام، وهو هجوم خالٍ من العلم ومن الإنصاف، وقد تألفت بعض جماعات شاذة تدعي الاكتفاء بالقرآن وحده، ولو تم لهذه الجماعات ما تريد لأضاعت القرآن والسنة جميعًا، فإن القضاء على السنة ذريعة للقضاء على الدين كله.

إن محاربة السنة لو قامت على أسس علمية، لوجب ألا يدرس التاريخ في بلد ما، لماذا يقبل التاريخ - على أنه علم - وتهتم كل أمة به، مع أن طرق الإثبات فيه مساوية أو أقل من طرق الإثبات في الحديث النبوي؟!

وأمر آخر نحب أن نثيره: لماذا تدرس سير العظماء وكلماتهم، وتعرض للتأسي والإعجاب، ويحرم من ذلك الحق رسل الله، وفي صدارتهم سيد أولئك الرسل مروءة وشرفًا، وبيانًا وأدبًا، وجهادًا وإخلاصًا؟!

إن بعض البله يتصور الأنبياء أبواقًا لأمين الوحي، يرددون ما يلقيه إليهم، فإذا انصرف عنهم هبطوا إلى مستوى الدهماء، وخبا نورهم!.. أي غفلة صغيرة في هذا التصور؟!.. إن الله - في كتابه - أحصى أسماء ثمانية عشر نبيًا من الهداة الأوائل، ثم قال للهادي الخاتم: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ قُل

لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًاۖ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الأنعام: ٩٠]، فإذا برز للإنسانية إنسان كامل، التقت في سيرته شمائل النبوات كلها، وتفجرت الحكمة على لسانه كلمات جوامع، واستطاع - وهو الفرد المستوحش - أن يحشد من القوة ما يقمع كبرياء الجبابرة، ويكسر قيود الشعوب، ويوطئ الأكناف للحق المطارد.. إذا يسر الله للإنسانية هذا الإنسان العابد المجاهد الناصح المربي، جاء غِرٌّ ليقول: لا نأخذ منه ولا نسمع له، ثم يستطرد مخفيًا غشه: حسبنا كتاب الله!. ».

ثم يعقب الشيخ الغزالي على هذا التفنيد العقلي لدعوى منكري السنة، فيقول متسائلًا: « وهل السنة إلا امتداد لسنا القرآن، وتفسير لمعناه، وتحقيق لأهدافه ووصاياه؟ »..

ثم يشير إلى مسؤولية نفر من المنتسبين للسنة – انتسابًا غير واع – عن هذا الشذوذ المغالي في إنكار السنة، فيقول – في رقة المعاتب –: « .. على أننا نعتب على جماعات كثيرة تنتسب للسنة، وتظهر التمسك بها، فإن مسلكها قد يكون وراء انصراف بعض الناس عن السنن وشكهم في جدواها، نأخذ على هذه الجماعات أمرين:

أولهما: أنها تخلط الصحيح بالسقيم، ولا تدري بدقة ما يقبل ويرد من المرويات..

وثانيهما: قصورهم الفقهي، فليست لهم قدم راسخة في فقه الكتاب الكريم – مع أنه الأصل – كما أنهم يأخذون الأحاديث

مقطوعة عن ملابساتها، ولا يضمون إليها ما ورد في موضوعها من مرويات أخرى قد تؤيدها وقد تردها..»..

ثم يمضي الشيخ الغزالي فيورد عناصر المنهج الذي اتفق عليه أعلام علماء الإسلام إزاء تحقيق صدق المرويات في السنة، داعيًا إلى إحياء معالم هذا المنهج، تنقية للسنة النبوية، وتحقيقًا لوظيفتها - كبيان للقرآن الكريم، وتجسيد عملي لمراميه في حياة المجتمع الإسلامي الأول - قطعًا للطريق على منكري سنة رسول الله عليه الصلاة والسلام..

يمضي فيورد معالم هذا المنهج فيقول: «لقد بذلت جهود لم يبذل مثلها في الوقوف على تراث بشر؛ كي يعرف ما قال الرسول حقًا.. وانتهت هذه الجهود بجملة حقائق محترمة:

١- أن في السنة ما هو متواتر لفظًا ومعنى، وهذا النوع من السنن يشبه القرآن الكريم فيما أتى به من أحكام..

٢- جمهور الأمة يقبل سنن الآحاد، ويعدها دليلًا على الحكم الشرعي الذي تعبد الله بإقامته، ومن الناس من عد هذه السنن مفيدة لليقين الذي يفيده التواتر - ما دامت صحيحة - ولكن جمهور العلماء يقبل سنن الآحاد في الأحكام العملية والفروع الفقهية، ولا ينقلها إلى ميدان العقيدة الذي يقوم الأمر فيه على القطع، ومعنى ذلك أن سنن الآحاد تفيد الظن العلمي وحسب.

٣- مع اتفاق الفقهاء على أن سنن الآحاد قرينة مقبولة في

إفادة الحكم الشرعي، فإن عددًا من الأئمة يتجاوز هذه السنن إذا كانت هناك قرينة أقوى منها في إفادة حكم الله.

فالإمام « مالك » - مثلًا - يرى عمل أهل المدينة أدل على السنة النبوية من حديث الآحاد مهما كانت صحته.

و« الأحناف » يرون أن حديث الآحاد لا ينهض على إثبات الفرضية وحده، ولا ينهض كذلك على إثبات الحرمة، ولكنه يثبت أحكامًا أقل رتبة.

وغالى بعضهم فجعل القياس القطعي أرجح من سنن الآحاد.. »

ثم يختم الشيخ الغزالي حديثه عن معالم هذا المنهج في اعتبار السنة بقوله:

« .. ودراسة السنة علم له رجاله الخبراء، ولا يقبل في هذا الميدان ما يرسله السفهاء من أحكام طائشة، تجعل التطويح بالسنة الشريفة أمرًا جائزًا، أو تجعل تكذيب حديث ما هوًى مطاعًا.

إنه لا فقه بغير سنة، ولا سنة بغير فقه، وقوام الإسلام بركنيه كليهما من كتاب وسنة »[1].

ذلك هو منهج علماء الإسلام - الذي ارتضاه الشيخ الغزالي - في النظر إلى قضايا السنة النبوية.. ولقد رأى الرجل - بحق - أن عكس الخطأ والخطر - من قبل أهل الجمود والحرفية النصوصية - إنما يأتي من:

(١) دستور الوحدة الثقافية بين المسلمين، (ص ٣٣، ٣٤، ٣٦ - ٣٨).

أ- إهمال نفر من المحدثين للقرآن الكريم، بينما الواجب هو الجمع بين القرآن والسنة، على نحو يجعل القرآن هو الأصل الحاكم، والسنة هي البيان والتفسير لآياته البينات..

ب- وجود فريق من المحدثين قد حرموا من ملكة الفقه، الأمر الذي عزل «الرواية» عن «الدراية».. بينما الواجب هو جمعهما واقترانهما معًا..

«.. إن الحكم الديني لا يؤخذ من حديث واحد مفصول عن غيره، وإنما يضم الحديث إلى الحديث، ثم تقارن الأحاديث المجموعة بما دل عليه القرآن الكريم، فإن القرآن هو الإطار الذي تعمل الأحاديث في نطاقه لا تعدوه، ومن زعم أن السنة تقضي على الكتاب، أو تنسخ أحكامه فهو مغرور!.. إن حياة محمد - صلوات الله عليه - كانت تطبيقًا عمليًا لتوجيهات القرآن!.. كانت قرآنًا حيًا يغير الأرض ويصنع حضارة أخرى ولولا هذه السنة العملية والقولية لكان القرآن أشبه بالفلسفات النظرية الثابتة في عالم الخيال!..»[1]

«.. إننا نعتقد - مثل كثير من العلماء المحققين - أن الأحكام التي توجد في الأحاديث الصحيحة هي مأخوذة ومستنبطة من القرآن الكريم، استنبطها النبي ﷺ من القرآن، بتأييد إلهي، وبيان رباني، ولذلك يجب علينا قبولها والعمل بها بشرط ثبوتها

(١) السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث، (ص ١١٨، ١١٩).

إلى النبي ﷺ، وهذا الفهم والاستنباط يسمى في اصطلاح القرآن تارة « تبييناً » وتارة « إراءة »، قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٤٤] وقال جل شأنه: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ﴾ [النساء: ١٠٥] »[1].

« .. ولقد كان الفقهاء - على امتداد تاريخنا العلمي - هم القادة الموثقين للأمة، الذين أسلمت لهم زمامها عن رضًا وطمأنينة، وقنع أهل الحديث بتقديم ما يتناقلون من آثار، كما تقدم مواد البناء للمهندس الذي يبني الدار ويرفع الشرفات، والواقع أن كلا الفريقين يحتاج إلى الآخر، فلا فقه بلا سنة، ولا سنة بلا فقه، وعظمة الإسلام تتم بهذا التعاون.. »[2].

هكذا عرض الشيخ الغزالي المنهج الذي ارتضاه في دراسة السنة النبوية، وفي الاحتجاج بها.. منهج: الجمع بين القرآن والسنة، ومحاكمة مرويات « البيان » إلى آيات « البلاغ ».. والجمع - في عقل العالم ومنهجه - بين « الدراية » و« الرواية ».. ذلك لأن الاكتفاء بصحة السند - الرواية - قد يجعلنا نقبل الروايات المكذوبة، التي أسندها الوضاعون الكذبة إلى رواة ثقات وعدول.. وها هو إمام المحدثين أحمد بن حنبل (١٦٤ - ٢٤١هـ/ ٧٨٠ - ٨٥٥م) يقول في الراوي أبي فضالة، فرج بن فضالة الشامي:

(١) هذا ديننا، (ص ١٩٧)، طبعة القاهرة، سنة (١٣٨٥هـ/ ١٩٦٥م).

(٢) السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث، (ص ٢٤).

« لقد حَدَّثَ عن يحيى بن سعيد مناكير، وحَدَّثَ عن ثقات أحاديث مناكير »[1]!..

وعنه يقول أبو حاتم بن حبان (٢٧٠ - ٣٥٤هـ/ ٨٨٤ - ٩٦٥م): « كان يقلب الأسانيد، ويلزق المتون الواهية بالأسانيد الصحيحة، فلا يحل الاحتجاج به!.. »[2].

فالركون إلى « الرواية » دون « الدراية »، وعزل القرآن الكريم - وهو الأصل الحاكم - عن السنة النبوية - وهي بيانه المفسر - إنما يقود إلى كمٍّ من التناقضات والمفارقات، ويفضي إلى العديد من الثغرات، التي يستند إليها أولئك الذين ابتدعوا ويبتدعون دعوى إنكار كل السنة، اكتفاء بالقرآن الكريم..

فمعركة الشيخ الغزالي - كما أشرنا - هي - في حقيقتها - دفاع عن السنة النبوية المطهرة، في مواجهة طرفي الغلو فيها.. المنكرين لكل مروياتها بإطلاق.. والمتعصبين لجميع مروياتها بإطلاق[3]!..

(١) ابن حجر العسقلاني (تهذيب التهذيب)، (٨/ ٢٦٠) وما بعدها، طبعة حيدر أباد الدكن، سنة (١٣٢٥هـ)، سنة (١٣٢٧هـ).

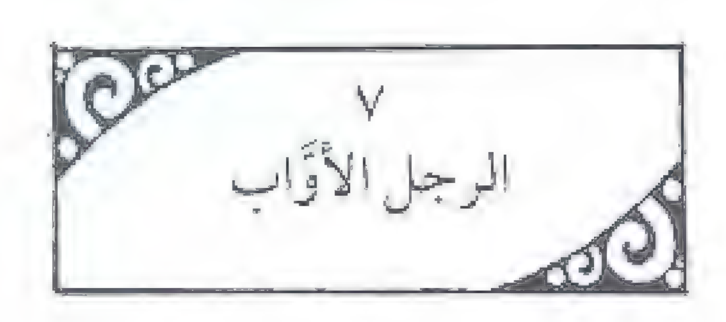
(٢) ابن القيسراني (كتاب السماع)، (ص ٨٥)، تحقيق أبو الوفا المراغي، طبعة القاهرة، سنة (١٣٩٠هـ/ ١٩٧٠م).

(٣) انظر في الأمثلة التي ضربها الشيخ الغزالي عن خطأ وخطر المنهج « الحرفي النصوصي » كتابه (هذا ديننا)، (ص ٢٠١ - ٢٠٤)، وكتابه (السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث)، (ص ١٧، ١٨) وغيرهما من الصفحات.

ذلك هو شيخنا محمد الغزالي، في أحدث المعارك الفكرية، والتي كانت هي الأخرى معلمًا من معالم «مشروعه الفكري» الذي استهدف به إيقاظ الأمة، وتجديد فكرها، وإحياءها بالإسلام لتواجه التحديات المفروضة عليها، من التخلف الموروث، ومن الاستلاب الحضاري، الذي جاءنا في ركاب المد الاستعماري الغربي الحديث..

لقد مثل الرجل – رحمة الله عليه – كتيبة من كتائب الإحياء الإسلامي، سواء أكان ذلك فيما كتب.. أو وعظ.. أو عَلَّم، أم في الخلق والسلوك.. فكان واحدًا من العلماء العدول، الذين علَّمنا رسول الله ﷺ أنهم هم ورثة الأنبياء.. الذين يحملون هذا الدين، في كل جيل من أجيال هذه الأمة الخاتمة، ينفون عنه تحريف المحرفين وغلو الغالين وأباطيل المبطلين.. وذلك حتى يتحقق وعد الله، فتكون كلمته هي العليا.. ويتحقق لهذه الأمة الشهود الحضاري على العالمين ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣] صدق الله العظيم.

* * *



٧
الرجل الأوّاب

(.. وقد تبيّن لي – وأنا باحث أنشد الحق، ولا أبتغي إلا وجه ربي – أن كثيرًا من مواطئ أقدامنا تحتاج إلى تبيين.. وأن بعض الآراء والاجتهادات ربما تحتاج إلى تمحيص..)

الشيخ محمد الغزالي

« الأوّاب » – في المصطلح القرآني –: هو الإنسان الكثير الرجوع عن الخطأ إلى الصواب، وعما يغضب الله إلى ما يرضيه.. أي الدائم محاسبة نفسه، ومراجعة أعماله وأقواله ومواقفه، ونقد الخاطئ منها، والرجوع عنه إلى الصواب، لا مراعاة لحقوق الناس وحدهم، أو المصالح المجردة فقط، وإنما – مع ذلك كله – طلبًا لرضا الله ﷻ واستجلابًا لطاعته.. ففي هذا المعنى القرآني ما هو أكثر من المعنى المتعارف عليه عندما نقول في الأدب السياسي الحديث: « النقد الذاتي » و« نقد الذات »!..

ونحن نقرأ – في القرآن الكريم – الثناء على الإنسان إذا كان « أوّابًا »: ﴿ وَوَهَبْنَا لِدَاوُودَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾ [ص: ٣٠].. ونعلم أن الله ﷻ قد صدق وعده للأوّابين بجنة النعيم: ﴿ وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ۝ هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ۝ مَنْ

خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ۖ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ ﴿٣٤﴾ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ [ق: ٣١ - ٣٥].

وحتى يكون الرجوع إلى الحق، ونقد الذات جزءًا من خلق المسلم وممارساته الحياتية، لا بد من تربية إسلامية توقظ فيه « الضمير » المبلغ في « الحساسية » مرتبة « التقوى ».. عند ذلك يداوم الإنسان على محاسبة النفس ملتزمًا توجيه أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ: « حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا »[1].. وتلك - لعمري! - مرتبة لا يرقى إلى الالتزام الدائم لتبعاتها إلا عظماء الرجال!.. « فالنفس اللوامة »، التي لا تدع صاحبها والغفلة عن مراجعة ممارساته، تبلغ في رفعة المرتبة إلى الدرجة التي أقسم بها الله ﷻ في كتابه عندما قال: ﴿لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴿١﴾ وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ﴾ [القيامة: ١، ٢].

ذلك هو مقام وخطر هذا الخُلُق من أخلاق الإسلام.. محاسبة النفس، والإياب إلى الحق، ونقد الذات، رعاية لمصالح الخلق وحرمة الخالق جميعًا.

وحتى المعصوم: محمد بن عبد الله ﷺ.. فإنه كان دائم المحاسبة لنفسه والمراجعة لعمله، والعودة عما يثبت أنه خطأ أو غير الأولى والأليق من عاداته واجتهاداته.. لقد كان معصومًا فيما يبلغ عن الله، لا ينطق فيه عن الهوى، إن هو إلا وحي يوحى.. أما فيما هو من « العادات » أو من الاجتهادات فقد كان بشرًا يجوز عليه

---

[1] رواه الترمذي.

الخطأ والصواب. وكان الوحي ينزل ليصوب أخطاءه، حتى لا يستن بها الناس.. وكان هو النموذج القدوة في مراجعة النفس، والإياب إلى الحق والصواب..

ونحن نقرأ في سيرته ﷺ أنه عندما مرض مرضه الأخير، وحضر إلى بيت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها « أمر منادياً فنادى في المدينة: أن اجتمعوا لوصية النبي ﷺ، فاجتمع كل من في المدينة، من ذكر وأنثى، وكبير وصغير، وتركوا أبوابهم ودكاكينهم مفتحة! وخرج ﷺ - وهو متوعك - بين الفضل ابن العباس وعلي بن أبي طالب ﷺ حتى جلس على المنبر.. »

فماذا كانت هذه الوصية التي جمع لها كل الناس.. والتي تحامل على المرض متوكئاً على الفضل وعلي، حتى صعد المنبر ليفضي بها إلى جمهور الناس؟!..

لقد كانت نقداً ذاتياً عاماً لكل ما قد يكون قد حدث منه تجاه الناس، وطلباً للقصاص أو التبرئة.. فهو قادم إلى لقاء ربه، ويريد - وهو المعصوم - محاسبة نفسه، قبل حساب الديان!..

جلس رسول الله ﷺ على المنبر، فحمد الله، ثم قال:

« أيها الناس: من كنت جلدت له ظهراً فهذا ظهري فليستقد[1] مني، ومن كنت شتمت له عرضاً فهذا عرضي فليستقد مني، ومن أخذت له مالاً فهذا مالي فليأخذ منه، ولا يخشى الشحناء من قِبَلي فإنها ليست من شأني ».

---

[1] أي: يقتص مني.

ثم نزل فصلى الظهر.. ثم رجع إلى المنبر فعاد إلى مقالته! فادعى عليه رجل بثلاثة دراهم، فأعطاه عوضها، ثم قال: «ألا إن فضوح الدنيا أهون من فضوح الآخرة!»[1]..

ذلك هو خلق الإسلام.. وتلك هي سنة رسوله – عليه الصلاة والسلام – ظلت النموذج الذي يجاهد المسلمون لاحتذائه، والنبراس الذي يستضيئون به، والأسوة الحسنة التي يتأسون بها عبر تاريخهم الطويل..

والأمر الذي لا شك فيه، هو أن أهمية محاسبة النفس، ونقد الذات، والرجوع عن الخطأ إلى الصواب، تتزايد شأنًا وتعظم خطرًا كلما تعلق الأمر بالشؤون العامة، والقضايا التي ترتبط بها مصالح الجمهور.. فمضار الأخطاء في الشؤون العامة دائرتها أوسع، وتأثيراتها أشد، ثم هي معرضة – إذا لم تتعرض للنقد والتصحيح – لأن تكون سنة عامة – سيئة – يحتذيها الآخرون!.. ثم إن العودة عنها، ونقد الذات حيالها، هو من أصعب الأمور؛ لأنه يقتضي العلانية والإعلام، وهو ما يشق كثيرًا على الكثير من النفوس، إلا من رحم الله وعصم من التكبر والصلف والجمود!..

فبقدر ما تكون النفوس كبارًا.. وبقدر ما تكون الإرادة شامخة.. وبقدر ما تكون الخشية من الله أكبر من خشية الذات

---

(١) رفاعة الطهطاوي (نهاية الإيجاز في سيرة ساكن الحجاز)، (الأعمال الكاملة) (٤/ ٣٨٧، ٣٨٨) دراسة وتحقيق: د. محمد عمارة، طبعة بيروت، سنة (١٩٧٧م).

والناس.. وبقدر ما تكون رعاية الصالح العام عبادة يتقرب بها الإنسان إلى الله.. بقدر ما تكون الشجاعة في محاسبة النفس، ونقد الذات، والإياب الدائم إلى الحق والصواب..

ولقد ازدان تاريخ الأمة - رغم ما فيه من صحائف سود - بالكثير من الصفحات المشرقة التي استضاءت بنبل العلماء والأعلام الذين غدوا معالم على هذا الطريق.. نكتفي بالإشارة إلى واحد منهم - هو سلطان العلماء، وشيخ الإسلام الإمام العز بن عبد السلام (٥٧٧ - ٦٦٠هـ/ ١١٨١ - ١٢٦٢م) - وذلك قبل الانتقال إلى الحديث عن الرجل الأواب.. شيخنا محمد الغزالي، الذي عقدنا لدراسته هذه الصفحات.

كان العز بن عبد السلام أعظم علماء عصره، حتى لقد انفرد بلقب سلطان العلماء؛ بل لقد بلغ بالعلم، وبالعمل به، المرتبة التي غدا فيها سلطانًا حتى على الملوك والأمراء والسلاطين - تشهد على ذلك كلمات السلطان الظاهر بيبرس - وهو الذي قهر الصليبيين والتتار - ومع ذلك عاش يخشى العز بن عبد السلام، حتى إذا مات العز، ورأى الظاهر جنازته مارة بجوار القلعة.. قال - وهو يتنفس الصعداء -: « اليوم استقر أمري في الملك »!!.

فهذا السلطان الذي قدمه العلماء، وهابته السلاطين والأمراء، كان شديدًا على نفسه في تطبيق مقاييس الحق الذي يأخذ بها

الآخرين.. ولقد أفتى مرة بشيء ثم ظهر له أنه أخطأ في فتياه، فما كان منه إلا أن خرج يطوف بشوارع مصر والقاهرة، وهو ينادي قائلًا: من أفتى له العز بن عبد السلام بكذا، فلا يعمل به، فإنه قد أخطأ في فتياه!..[1].

تلك هي سنة محاسبة النفس.. وذلك هو خلق الأوابين، كما عرفه الفكر والتاريخ في الإسلام..

أما شيخنا محمد الغزالي.. فأنا أشهد أنه واحد من الأوابين في علماء العصر الذي نعيش فيه..

إن الرجل لا يفتأ يردد - كلما جاء الحديث عن معاركه الفكرية - وبصدد نقده للذات: « إنني رجل فِيَّ حِدَّة! » وهو يدعو الآخرين إلى تجاوز « الأسلوب » إلى « لب الموضوع »، ثم إن تاريخ الرجل - وهو مليء بالمعارك الفكرية، بل هو معركة فكرية متعددة الحلقات - حافل بمراجعته لفكره، وتطويره لمواقفه، وضبطه لأحكامه، ومحاسبته لنفسه، وإعلانه - في شجاعة عظماء العلماء - الأوبة إلى الحق والصواب، إذا هو تبين غير ذلك فيما خط قلمه أو نطق لسانه من آراء.. وتلك لعمري! واحدة من خصائص الفكر الحي للأحياء من العلماء.. فالذين لا يراجعون أفكارهم إما أن يكونوا أمواتًا، أو هم كالأموات!..

---

(١) انظر كتابنا (مسلمون ثوار)، (ص٢٩٨، ٢٩٩)، طبعة دار الشروق، القاهرة، سنة (١٩٨٨م).

ولنضرب على هذه الحقيقة من حقائق الحياة الفكرية للشيخ الغزالي بعض الأمثال:

* في بداية حقبة الخمسينات من هذا القرن العشرين: احتدم الخلاف بين الشيخ الغزالي وبين القياد الجديدة لجماعة الإخوان المسلمين، وخاصة مرشدها الثاني المرحوم حسن الهضيبي.. ولقد تناول الشيخ الغزالي أحداث هذا الخلاف، ومواقف الهضيبي منه تناولًا راجع نفسه حياله بعد ذلك، فرأى فيه من الخطأ والحدة ما يستوجب العودة عنه إلى الموضوعية في تقدير المواقف والأحداث والملابسات.. فرأيناه يكتب في الطبعة الجديدة من كتابه (من معالم الحق في كفاحنا الإسلامي الحديث)، الصادرة سنة (١٩٨٤م) - عن خلافه مع حسن الهضيبي - هذه السطور:

« من حق الرجل أن أقول عنه: إنه لم يسع إلى قيادة الإخوان، ولكن الإخوان هم الذين سعوا إليه، وإن من الظلم تحميله أخطاء هيئة كبيرة مليئة بشتى النزعات والأهواء.

ومن حقه أن يعرف الناس عنه أنه تحمل بصلابة وبأس كل ما نزل به، فلم يضرع ولم يتراجع، وبقي في شيخوخته المثقلة عميق الإيمان واسع الأمل حتى خرج من السجن..

الحق يقال.. إن صبره الذي أعزه الإيمان رفعه في نفسي، وإن المآسي التي نزلت به وبأسرته لم تفقده صدق الحكم على الأمور، ولم تبعده عن منهج الجماعة الإسلامية منذ بدأ تاريخنا، على حين خرج من السجن أناس لم تبق المصائب لهم عقلًا!..

وقد ذهبت إليه بعد ذهاب محنته، وأصلحت ما بيني وبينه، ويغفر الله لنا أجمعين ».

ثم يعلق الشيخ الغزالي على موقفه من أحداث هذا الخلاف، فيقول - في مقام آخر -:

« لقد اختلفت مع المغفور له الأستاذ حسن الهضيبي، وكنت حاد المشاعر في هذا الخلاف؛ لأني اعتقدت أن بعض خصومي أضغنوا صدر الأستاذ حسن الهضيبي لينالوا مني.

فلما التقيت به – عليه رحمة الله – بعد أن خرج من المعتقل، تذاكرنا ما وقع، وتصافينا، وتناسينا ما كان، واتفقت معه على خدمة الدعوة الإسلامية، وعفا الله عما سلف.

وأرى أن الأستاذ الهضيبي أثبت أيام سجنه أنه رجل صلب العود متين الإيمان وثيق الصلة بالله.. وقد كنت – وأنا خارج السجن – أنوه بثباته وتشريفه للدعوة بعدم ضعفه أو استخذائه أمام من عذبوه، بل اتسعت دائرة دفاعي حتى شملت جميع الأخوة، برغم ما كان بيني وبينهم من خلاف، فكنت أشد الناس حنوًا عليهم، وإسراعًا إلى مساعدتهم، وانتصارًا ضد أعدائهم.. »[1].

والذين يقارنون هذا الموقف، وهذا الحديث بما كتب الشيخ الغزالي من قبل عن الهضيبي، وخلافه معه.. يدركون جيدًا مدى الصدق والموضوعية في قولنا عنه: إنه رجل أوّاب!..

---

[1] الشيخ الغزالي ومعركة المصحف في العالم الإسلامي (ص ٦١، ٦٢).

* وفي « المؤتمر الوطني للقوى الشعبية » – الذي انعقد في مايو سنة (١٩٦٢م) – كان الشيخ الغزالي واحدًا من رموز النقد والمعارضة لكثير من سلبيات التجربة الناصرية.. ولقد برز في هذا المؤتمر تياران.. أحدهما – وهو يعبر عن قمة القيادة السياسية – يدفع الصيغة الفكرية للتجربة الناصرية، عبر « الميثاق » إلى اليسار، والاشتراكية العلمية، قريبًا من الماركسية – مع التحفظ على ماديتها الجدلية والتاريخية – ..

وثاني هذين التيارين – وهو الذي عبر عنه « تقرير لجنة الميثاق » – يدفع الصيغة الفكرية لثورة يوليو – عبر إبراز الفروق والتناقضات مع الماركسية، وبواسطة الضوابط الإسلامية – قريبًا من الفكرية الإسلامية والوطنية والقومية، وبعيدًا عن الماركسية..

وكان للشيخ الغزالي في هذا المؤتمر حديث طالب في ختامه بلباس موحد للرجال وآخر للنساء؛ طلبًا للحشمة الإسلامية الشرقية، وإزالة للفوارق الصارخة – في الأزياء – بين الناس.. ويومها تناوله عدد من الصحفيين الليبراليين واليساريين بالنقد والتجريح.. بينما انتصرت له جماهير المساجد بالمظاهرات.

وعندما راجع الرجل موقفه هذا أدرك أنه وإن لم يخطئ في الفكر والرأي، إلا أنه لم يوفق في اختيار الموضوع المناسب للمقام.. فالأستاذ خالد محمد خالد – مثلا – قد دافع – في هذا المؤتمر – عن الحريات.. فأغضب دعاة الحكم الشمولي؛ لكن

الصحافة وأهل الفكر والثقافة وإن جبنوا فلم يدافعوا عنه، إلا أنهم قد تعاطفوا معه، وإن صمتوا خوفًا من السلطان!.. أما الشيخ الغزالي فلقد كان اختياره لموضوع زي المرأة - وهو موضوع هامشي بالنسبة لأعمال مثل هذا المؤتمر - كان هذا الاختيار «ثغرة» انتهزها وقفز عليه منها الكارهون للإسلام.. كما كان «شبهة» ظن منها البعض عداء الرجل لحريات المرأة، وحقيقة موقفه وفكره على العكس من ذلك تمامًا.

لذلك.. وجدنا الرجل - عندما راجع موقفه هذا - يتخذ موقف العالم الأواب، فيكتب في كتابه (معركة المصحف في العالم الإسلامي) يقول:

«لقد جرت على لساني كلمة تتصل بملابس الرجال والنساء، كان الباعث على ختم الحديث بها في (المؤتمر الوطني للقوى الشعبية) ما أحسه ويحسه الكثيرون من أن مشكلة الأزياء في مصر سيئة ومحرجة، وتتطلب حلًا معقولًا.

ومن الواجب - في نظري - خلق لباس يرتديه الرجال عامة، ويكون التفاوت في ثمنه وشكله ضيقًا، بحيث لا تكون سعة الثروة سببًا في الانتفاخ، وقلتها سببًا في الانكماش، وبحيث لا تكون هناك ملابس دينية وأخرى مدنية.

أما ملابس النساء فمن الواجب ابتكار أزياء تجمع بين الفضيلة والجمال، وتمنع التبرج والفساد!..

هذا ما قلته، وما فوجئت بأنه أقام الدنيا وأقعدها، أو بتعبير دقيق: ما وجده الماكرون مجالًا لنقل المعركة إليه، واختلاق قضية أخرى يدور حولها الجدل بعنف، وتختنق في ضوضائها قصة التشريع الإسلامي من ألفها إلى يائها.

ولا أدري كيف وقعت في هذه الحفرة! وكيف انسقت إلى هذا الموضوع الثانوي! وسمحت لنفسي بإطالة الكلام فيه، عندما طلبت للكلام مرة ثانية..

ولقد كان لهذا الخطأ أثران رديئان:

الأول: أني مكنت أعداء التشريع الإسلامي من بعثرة الجهود النبيلة التي احتشدت لنصرته.

الثاني: أني لم أعط صورة كاملة لمكانة المرأة في الإسلام، واكتفيت باستنكار الانحرافات الخلقية والاجتماعية التي عرضت لنهضتها الحديثة.

ففهم بعض الناس أني أريد العودة بالنساء إلى عهود الجمود والجهالة، التي عاشت فيها خلال القرون الأخيرة.. »[1].

لقد راجع الرجل نفسه.. وأعاد النظر في موقفه.. وتدبر الأمر، فأدرك « الخطأ » الذي جعله يقع في « حفرة » انتهزها أعداء التشريع الإسلامي ليصرفوا الأنظار عن جوهر القضايا إلى « الهوامش » الجانبية، وليستغلوا المرأة على موقف الشيخ من قضية الأزياء!..

(1) المرجع السابق: (ص ١٥٧، ١٥٨).

ولقد كان شجاعًا، وواعيًا في المراجعة.. والنقد.. على النحو الذي يمثل نموذجًا يجب أن يحتذى، فيتعلم منه الكثيرون..

وهو في مقدمة الطبعة السابعة لكتابه الأول (الإسلام والأوضاع الاقتصادية) الذي طبع لأول مرة سنة (١٩٤٧م) - في مقدمة الطبعة السابعة - التي كتبها سنة (١٩٨٦م).. يراجع أفكاره وآراءه، على ضوء ما جد وما استبان من أحداث عقود ثلاثة مضت.. ويكتب في شجاعة العالم الأوَّاب عن تصحيح موقفه من نظم وحكام ونظريات وشعارات.. ويقول:

" .. وقد تبين لي - وأنا باحث أنشد الحق ولا ابتغي إلا وجه ربي - أن كثيرًا من مواطئ أقدامنا تحتاج إلى تبيين.. وأن بعض الآراء والاجتهادات ربما تحتاج إلى تمحيص، مع ما أفدناه من تجربة العقود الثلاثة الماضية.. ففي كتابنا هذا - خلال طبعاته السابقة - كنا قد عرضنا لبعض القضايا.. وقد جد من الحقائق ما يدعونا إلى أن نعود إليها بشيء من التمحيص.. فقد كان هناك شطط في المصادر التي نقلت بعض الصور - التي اعتمدنا عليها - وبالغت في تشويهها.. كانت الرؤية خاضعة لظروف وقتية، فلما تكشفت الحقائق لزم تغيير الآراء (وهذا باب من أبواب الاجتهاد التي تتغير فيها الرؤى والأحكام).. "[1].

---

[1] مقدمة الطبعة السابعة من كتاب (الإسلام والأوضاع الاقتصادية)، (ص ٩، ١١، ١٢).

وهو هنا يضرب نموذجًا آخر من نماذج الموضوعية في محاسبة النفس، ونقد الذات، ومراجعة الفكر، والعودة لما يراه حقًا.. وتلك - لعمري - شواهد صادقة على عظمة هذا الشيخ الأوّاب..

وبعد هذه الإشارات إلى هذه المواقف الشاهدة على تحلي شيخنا الغزالي بهذا الخلق الإسلامي الرفيع.. خلق الأوّاب.. المحاسب لنفسه.. والناقد لذاته.. والمراجع لفكره.. أود أن أجعل ختام هذه الإشارات إلى هذا الجانب من جوانب شخصيته، الإشارة إلى شاهد آخر من شواهده، قد كنت شاهدًا فيه وعليه، بل وطرفًا فيه..

وأنا أبادر فأقول: إنني أسوقه في هذا المقام، لا لأنني كنت طرفًا فيه، وإنما لأني قد تعلمت منه ما لم أتعلم من كثير من الأعلام والشيوخ المعاصرين في هذا المجال، وأود أن أشرك معي في التعلم منه كثيرين، سواء منهم أولئك الأعلام الذين هم في مواقع القدوة والصدارة والقيادة، أم الشباب الذين هم في حاجة إلى نماذج تعيد إليهم الثقة في الرواد والقادة والأئمة من العلماء والأعلام.. لهذه الحكمة، ولهذا السبب، ولهذه الغاية، أسوق هذا الشاهد في ختام هذا الحديث عن صفة الأوّاب في هذا الشيخ الجليل..

في النصف الثاني من سنة (١٩٨٣م) كان المرحوم الأستاذ عبد الرحمن الشرقاوي ينشر في صحيفة « الأهرام » فصول « الصورة الأدبية » التي كتبها عن الإمام علي بن أبي طالب -

وهي التي اختار لها عنوان: (علي: إمام المتقين) –وأخذت آراؤه وتقويماته لأحداث التاريخ الإسلامي وصراعاته، في حقبة صدر الإسلام، تثير الجدل في عدد من الصحف والمجلات، ما بين ناقد، ومحبذ، ومعترض، ومهاجم..

وكان الشيخ الغزالي – وقتئذ – يعيش في « قطر » أستاذًا في جامعتها.. فأدلى بدلوه في هذه المعركة، من موقع الناقد – بعنف – للمنهج اليساري في تفسير تاريخ الإسلام..

وفي محاضرة عامة حول هذه القضية – ألقاها في قطر – وجه هجومه الغاضب إلى الذين يسمون أنفسهم بـ« تيار اليسار الإسلامي ».. وكانت مفاجأة لي عندما قرأت في صحيفة « الأهرام » – ضمن مقال لعبد الرحمن الشرقاوي يرد فيه على الشيخ – الفقرة التي نقلها الشرقاوي عن محاضرته، والتي جمع فيها أسماء كتّاب اليسار الإسلامي الذين صب عليهم هجومه الغاضب.. كانت مفاجأة لي أن وجدت اسمي ضمن هذه الأسماء!..

لقد فوجئت؛ لأن هذه ليست حقيقة موقفي الفكري.. وفوجئت لغيبة هذه الحقيقة عن الشيخ الغزالي الذي اعتقدت – رغم أننا لم نكن قد التقينا بعدُ لقاءً مباشرًا – أنه لا بد أن يكون ملمًا ولو بطرف قليل مما قدمته للمكتبة الإسلامية من فكر لا يباعد فقط بيني وبين دعاة « اليسار الإسلامي »، وإنما هو ينقض ويهدم – من الأساس – مصداقية ومشروعية وجود مثل هذا التيار!..

لقد فوجئت .. لكنني لم أغضب.. فضلًا عن أنني طويت الأمر مع طي لصحيفة «الأهرام»!..

ثم حدث أن سألني صديق – أستاذ في جامعة قطر – عن مشاعري حيال هجوم الشيخ الذي تناولني فيمن تناول.. فأجبته – صادقًا – إنني على يقين من أن الشيخ الغزالي قد تناولني وهو غاضب، لكنني على ذات الدرجة من اليقين بأن غضبته إنما كانت لله ولدينه، وانتصارًا للحق الذي يتغياه – حتى ولو اختلفت الرؤى في الأساليب والتفاصيل – ولذلك فإن حبي للشيخ، واعتزازي بفكره وجهاده لم ولن يتأثرا بوضعه لي – إبان غضبته المشروعة هذه – في الموقع الذي لا أحب ولا أرضى..

ثم حدث أن بلغ رأيي هذا إلى شاب مثقف – كان يتولى إدارة الشئون الثقافية بجامعة قطر – ليست بيني وبينه معرفة مباشرة، لكنه كان يقرأ لي – مع إعجاب وتقدير – وفي ذات الوقت كان من مريدي الشيخ الغزالي ومحبيه.. فعز عليه وجود هذا الخلاف المعلن بين الشيخ الغزالي وبيني، مع يقينه – وهو الذي يتابع فكرنا معًا – بأنه خلاف لا مبرر لوجوده أصلًا.. فتطوع وذهب إلى الشيخ الغزالي، وعرض عليه أن يقرأ عددًا من المقالات القصيرة، كنت أنشرها أسبوعيًا في مجلة (الشراع) – البيروتية – في زاوية أطلقت عليها عنوان: «التراث والمستقبل»..

حدث كل هذا السعي الطيب دون أن أدري عنه شيئًا..

وما هي إلا أيام، حتى تسلمت خطابًا أثار مظروفه الانتباه!.. فعلى المظروف عبارة: « المرسل: محمد الغزالي – كلية الشريعة – جامعة قطر » ولم أكن من قبل قد التقيت بشيخنا الجليل.. ولا تبادلنا المراسلات، وأقرب العهد به هو خبر ذلك الهجوم الذي أشرت إليه!..

فلما فتحت المظروف، وقرأت خطاب الشيخ الغزالي.. كانت المفاجأة التي هزت كياني من الأعماق.. لقد وجدتني أمام وثيقة لا يكتبها إلا واحد من عظماء الرجال.. فهذا الشيخ الجليل، الذي يقع مني موقع الأستاذ من التلميذ.. يجلس في موقعه هذا ليراجع نفسه ويحاسبها.. ولينقد ذاته، وليعلن لي عن تصحيحه لموقفه مني، لا في إطار هذه الرسالة فقط، وإنما علنًا وعلى رؤوس الأشهاد!..

حقًّا إنه رجل أَوَّاب.. وإذا كانت رسالته هذه قد هزت كياني من الأعماق.. فبادرت أكتب إليه قائلًا: « إن أمة فيها أمثالك لا بد منتصرة بإذن الله ».. فإن الذي تعلمته من رسالة هذا الشيخ الأَوَّاب، أجدني مطالبًا – أمام ضميري – بأن أيسر مصدره ليتعلم منه الآخرون، وليقوم شاهدًا حيًّا على صدق هذا الذي أقوله عن هذا الجانب من جوانب خلق هذا الشيخ الجليل..

لقد كتب في رسالته يقول:

بسم الله الرحمن الرحيم

أخي الأستاذ الدكتور محمد عمارة

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

وبعد: فإن القليل الذي قرأته لك أخيرًا ردّني إلى الصواب في أمرك، وجعلني أندم على تعجلي في عدك من كتّاب « اليسار الإسلامي ».. لقد كنت في ضيق شديد للحرج الذي وقع الفكر الإسلامي فيه عندنا هنا في الخليج، الذي يمرح فيه الغزو الثقافي غير خجل ولا قلق.. وتناولت ناسًا قرأت لهم ما لا يسر، ولكني ما كنت قرأتُ لك وإنما حدثني البعض أنك تصف الشريعة الإسلامية بأنها من وضع الفقهاء، وتتبنى النظرة المادية إلى الفلسفة الإسلامية.. وما كان يليق بي أن أعتمد السماع في تقدير الرجال، ومن ثم كنت - بعد وصفي لك باليسار الإسلامي - قلقًا في عدالة الحكم الذي صدر مني بالنسبة لكم خاصة..

والآن، وبعد قراءات قليلة لآثارك الأدبية أيها الأخ العزيز رجعت إلى من حدثوني وقلت: إن الطبيعة العقلية للدكتور محمد عمارة تتسم بعمق النظرة، ودقة الحكم، وسعة العلم، والتجرد للحق.. وإذا مضى في هذا الطريق فأحسبه سيكون نموذجًا للأستاذ العقاد، وعبقرياته الإسلامية.. معذرة عما قلته، وعند أول فرصة لكتابة عامة سأنشر رأيي، فهذا حقك الذي يفرضه علي ديني.

والسلام عليكم ورحمة الله

٢٥ جمادى الآخرة سنة ١٤٠٤هـ

أخوك محمد الغزالي[1]

تلك هي « الرسالة.. الوثيقة ».. التي احتفظت بها ست سنوات، رغما إلحاح كثير من الأصدقاء على كي أنشرها..

فلما شاء الله، وشرعت أكتب هذه الرسالة عن هذا الشيخ الجليل.. وعَنَّ لي أن أتناول هذا الجانب من جوانب خلقه وشخصيته.. محاسبة النفس.. ومراجعة الفكر.. ونقد الذات.. آثرت أن أشرك غيري في أن يتعلم مما تعلمت منه.. وأحببت أن أقيم شاهدًا آخر – قد لا يعلمه الناس – على تحلي هذا العالم.. المجدد.. المجاهد.. بخلق المسلم الأوّاب..

ومرة أخرى نقف أمام آيات القرآن الكريم:

﴿ وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾ هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾ مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ ﴿٣٣﴾ ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ ﴿٣٤﴾ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴾ [ق: ٣١–٣٥].

﴿ وَوَهَبْنَا لِدَاوُودَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾ [ص: ٣٠].. صدق الله العظيم.

.. رحم الله شيخنا محمد الغزالي.. وعوضنا فيه خيرًا، وبارك لأمته فيما قدم لها من عطاء.

---

(١) انظر صورة هذه الرسالة بخط الشيخ الغزالي، مع هذه الدراسة

دار إحياء التراث الإسلامي

أخي الأستاذ الدكتور محمد عمارة

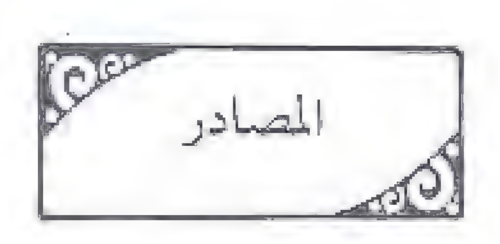
السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

[illegible]

والسلام عليكم ورحمة الله

THE ISLAMIC HERITAGE REVIVAL DEPT

P.O. Box [illegible] DOHA - QATAR ... Cable HERITAGE DOHA - Tel [illegible]



المصادر

ابن حجر العسقلاني: (تهذيب التهذيب)، طبعة حيدر أباد الدكن، الهند، سنة (١٣٢٥هـ - ١٣٢٧هـ).

ابن القيسراني: (كتاب السماع)، تحقيق: أبو الوفا المراغي، طبعة القاهرة، سنة (١٣٩٠هـ/ ١٩٧٠م).

حسن البنا (الإمام الشهيد): (مجموعة رسائل الإمام الشهيد حسن البنا)، طبعة دار الشهاب، القاهرة.

رفاعة رافع الطهطاوي: (الأعمال الكاملة)، دراسة وتحقيق: د. محمد عمارة، طبعة بيروت، سنة (١٩٧٧م).

عاصم الدسوقي (دكتور): (كبار ملاك الأراضي الزراعية ودورهم في المجتمع المصري)، (١٩١٤ - ١٩٥٢م)، طبعة القاهرة، سنة (١٩٧٥م).

الغزالي (حجة الإسلام) أبو حامد: (الاقتصاد في الاعتقاد)، طبعة المكتبة المحمودية التجارية، القاهرة.

الغزالي (الشيخ محمد): كتبه ورسائله، انظر عناوينها في مكانها من هذا الكتاب.

د. فتحي الملكاوي (محرر): (العطاء الفكري للشيخ محمد الغزالي)، طبعة عمّان، سنة (١٩٩٦م).

محمد شلبي: (الشيخ الغزالي ومعركة المصحف في العالم الإسلامي)، طبعة القاهرة، سنة (١٩٨٧م).

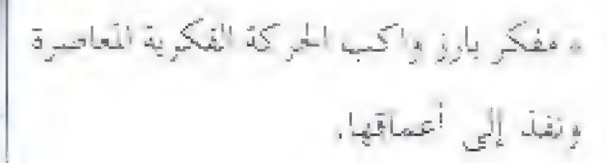
محمد عمارة (دكتور): (مسلمون ثوار)، طبعة دار الشروق، القاهرة سنة (١٩٨٨م).

محمد فؤاد عبد الباقي: (المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم)، طبعة دار الشعب، القاهرة.

* * *

السيرة الذاتية للمؤلف

• الدكتور / محمد عمارة.



• مفكر بارز واكب الحركة الفكرية المعاصرة ونفذ إلى أعماقها.



• ولد بمصر سنة (١٣٤٩هـ - ١٩٣١م).

• درس بالأزهر تسع سنوات حتى نهاية المرحلة الثانوية ثم في كلية دار العلوم جامعة القاهرة ومنها نال درجة الليسانس في اللغة العربية والعلوم الإسلامية.

• أنجز دراساته العليا بكلية دار العلوم في الفلسفة الإسلامية، وكانت أطروحته للماجستير عن (المعتزلة ومشكلة الحرية الإنسانية)، أما موضوع الدكتوراه فكان عن (الإسلام وفلسفة الحكم).

• متفرغ للعمل الفكري، قدم للمكتبة العربية الإسلامية أكثر من ١٠٠ كتاب ما بين تأليف وتحقيق لتراثنا القديم منه والحديث وتبرز في أعماله الفكرية اهتماماته بقضايا الفكر الإسلامي المتنوعة قديمها وحديثها، وكذلك قضايا التراث الفكري والفلسفي

والحضاري في محاولة جادة للإسهام في صياغة المشروع الحضاري العربي الإسلامي البديل عن مشروع التغريب، كما تتميز كتاباته بالنظرة النقدية لتراث حقبة التراجع والجمود في تاريخنا الحضاري، وبقراءة جديدة لأصولنا الفكرية في ضوء متغيرات العصر، وبمنطق الأصالة الإسلامية المعاصرة المتميزة.

• **من أهم كتبه**: الأعمال الكاملة لرواد عصر النهضة؛ الطهطاوي والأفغاني ومحمد عبده والكواكبي، كما كتب في (الصحوة الإسلامية والتحدي الحضاري) و (الإسلام وحقوق الإنسان) و (الغزو الفكري وهم أم حقيقة) و (الطريق إلى اليقظة الإسلامية) و (العلمانية ونهضتنا الحديثة) و (الإسلام والمستقبل) و (الاستقلال الحضاري).

* * *

رقم الإيداع

٢٠٨٤٣/٢٠٠٨

الترقيم الدولي I.S.B.N

977-342-672-6

(من أجل تواصلٍ بنّاء بين الناشر والقارئ)

عزيزي القارئ الكريم .. السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ..

نشكر لك اقتناءك كتابنا : « الشيخ محمد الغزالي: الموقع الفكري والمعارك الفكرية » ورغبة منا في تواصلٍ بنّاء بين الناشر والقارئ ، وباعتبار أن رأيك مهمٌ بالنسبة لنا ، فيسعدنا أن ترسل إلينا دائمًا بملاحظاتك ؛ لكي ندفع بمسيرتنا سويًّا إلى الأمام .

* فهيّا مارس دورك في توجيه دفة النشر باستيفائك للبيانات التالية :-

الاسم كاملاً : .... الوظيفة : ....

المؤهل الدراسي : .... السن : .... الدولة : ....

المدينة : .... حي : .... شارع : .... ص.ب : ....

هاتف : ☐☐☐☐☐☐☐ / ☐☐☐☐☐☐☐☐☐☐ e-mail :

- من أين عرفت هذا الكتاب ؟

☐ أثناء زيارة المكتبة ☐ ترشيح من صديق ☐ مقرر ☐ إعلان ☐ معرض

....

- من أين اشتريت الكتاب ؟

اسم المكتبة أو المعرض : .... المدينة .... العنوان ....

....

- ما رأيك في أسلوب الكتاب ؟

☐ عادي ☐ جيد ☐ ممتاز (لطفًا وضح لِمَ) ....

....

- ما رأيك في إخراج الكتاب ؟

☐ عادي ☐ جيد ☐ متميز (لطفًا وضح لِمَ) ....

....

(من أجل تواصلٍ بنّاء بين الناشر والقارئ)

(من أجل تواصل بناء بين الناشر والقارئ)

- ما رأيك في سعر الكتاب ؟ ☐ رخيص ☐ معقول ☐ مرتفع

(لطفًا اذكر سعر الشراء) .... العملة ....

- هل صادفت أخطاء طباعية أثناء قراءتك للكتاب ؟

☐ لا يوجد ☐ نادرًا ☐ يوجد أخطاء مطبعية

لطفًا حدد موضع الخطأ ....

....

....

عزيزي انطلاقًا من أن ملاحظاتك واقتراحاتك سبيلنا للتطوير وباعتبارك من قرائنا فنحن نرحب بملاحظاتك النافعة . . . فلا تتوانَ ودَوِّن ما يجول في خاطرك : -

....

....

....

....

....

....

دعوة : نحن نرحب بكل عمل جاد يخدم العربية وعلومها والتراث وما يتفرع منه ، والكتب المترجمة عن العربية للغات العالمية - الرئيسية منها خاصة - وكذلك كتب الأطفال .

عزيزي القارئ أعد إلينا هذا الحوار المكتوب على

e-mail:info@dar-alsalam.com

أو ص . ب ١٦١ الغورية - القاهرة - جمهورية مصر العربية

لنراسلك ونزودك ببيان الجديد من إصداراتنا

الكتاب في سطور

تتعطر الأقلام حينما تتحدث عن عَلَم كبير من أعلام الإسلام العظام، ومن أبرز هؤلاء الأعلام في تاريخنا المعاصر الشيخ محمد الغزالي، الذي كان نموذجًا فريدًا من العلماء المجددين الذين يحملون هموم الأمة والواعين بأبعاد الحرب المعلنة تاريخيًا ضد الإسلام وأمته وحضارته، فكان مدركًا لخطر الأمراض الداخلية التي تفترس الأمة؛ حتى مثّلت حياته مشروعًا فكريًا ومعركة فكرية امتدت لأكثر من خمسين عامًا وهو يخوض في غمار هموم الأمة وقضاياها.

ومن هذا المنطلق جاء كتابنا هذا بدراسة منهجية حول شيخنا الغزالي، رجاء أن تسد فراغًا في الدراسات حول مشروعه الفكري الذي لا يزال عنوانًا ومظلةً لتيار الاجتهاد والتجديد في فكرنا الإسلامي المعاصر على امتداد عالم الإسلام.

الناشر



القاهرة - مصر - ١٢٠ شارع الأزهر - ص.ب ١٦١ الغورية
هاتف: ٢٢٧٠٤٢٨٠ - ٢٢٧٤١٥٧٨ - ٢٥٩٣٢٨٢٠ - ٢٤٠٥٤٦٤٢
فاكس: ٢٢٧٤١٧٥٠ (٢٠٢+)
الإسكندرية - هاتف: ٥٩٣٢٢٠٥ فاكس: ٥٩٣٢٢٠٤ (٢٠٣+)
www.dar-alsalam.com info@dar-alsalam.com

